Semat
An International Journal

أيقونة الاستعارة وبلاغة القراءة

العربيّ عمّيش / الجزائر

The Icon of Metaphor and the Rhetoric of Reading

Amich Larbi

University Hassiba Ben Bouaali – shelf – Algeria
Email: larbi52@yahoo.fr

Received: 16 Dec. 2012; Revised: 9 Jan-20 Feb. 2013; Accepted: 28 July 2013

Published online: 1 Sept. 2013

Abstract: In its aesthetic and artistic manifestations, the rhetorical linguistic thought is founded on the principle of semantic renovation, or its transfer from stable and preserved images to a value that completes and enriches it. Since the analogical rhetorical structure has been constantly and successfully feeding this trend, relying mainly on a sensual principle founded on permutation and adjustment, rhetorical efficiency is achieved through the involvement of the self that generates the sensual and comprehensive taste. This is done through concentration on the imaginative activity, which borrows its linguistic auditory regularity starting from the psychological image of speech and the realm of the self before the eclipse of the communicative function of language, where convergence of the semantic and the structuralist aspect of language take place. This trend established itself ever since the first compositional attempts endured in the purity of the rhetoricity of the metaphor. Iben El Mouataz's perception of the value of the rhetorical inventiveness of metaphor points to its self containment; being a value in the renewable discourse and not redundant and dedicated in response to the rhythmic context. It was appropriate to the art of semantisation of rhythm proper to metaphors to remain the creative sensibility in search for the values of derivational linguistic renovation. This was enough for the rhetoricity of metaphor to keep the context of the emotional and sensual discoveries which is universally related to the human existence. This is the semantic function which requires the production of a an artistic behaviour that enjoys an aesthetic artistic culture with preserved procedures, calculated rhythm, appealied to the creative self to endow it with encyclopaedic artistic culture in relation to the different environmental and social substances of denotations.

The semantics of metaphor takes its creative method and its readability from the same methodologies and knowledge values, which have produced the science of semiotics within the limits of denotation or practical context it passes through nowadays. Therefore, metaphor and semiotics have a common conceptual overlap: signified, signifier, symbol, style, projection, structure and what conforms to these rhetorical values of signifiers in relation to the personification of meaning. In spite of the scientific enrichments and changes that effected metaphor by virtue of its pedagogical involvements in teaching programmes, it remains a repository of the linguistic and psychological modulations in the Arabic rhetorical convention. We noticed many intellectual signs in El Djahidia Theory, as a proof, in rhetorics and rhetoricity; El Djahid conceived of metaphor as part of rhetorics according to an aesthetic and artistic perspective. This sensual assessment of the rhetoricity of metaphor was able to enrich the semantic, artistic perspectives of the language of beauty. The authority of grammar and criticism is weakened positively on the process of literary creativity. The priority has been given after to the saturation of the creative self by the values of compositional experimentalism which we consider a lasting creative

Keywords: Semiotic, rhetoricity, metaphor, imaginative, reading, semantisation.

أيقونة الاستعارة وبلاغة القراءة

العربيّ عمّيش / الجزائر

"كلّ الصّيد في جَوف الفرا"، مثل يضرب للمبالغة في تفضيل الشخص على أقرانه، وتقدمته عليهم، وقد قيل أن أبا سفيان قلق من تأخير الرسول صلى الله عليه وسلم الإذن له بالدّخول عليه، فلما عرف الرسول منه ذلك، طمأنه ببلاغة ذلك القول: يا أبا سفيان، كلّ الصيد في جوف الفرا، فكان البعد البلاغي والحكمة المشتمل عليها سبيلا إلى التهدئة من روع أبي سفيان، وتطييب خاطره.

يتباين البلاغيون العرب، وحكمائهم في توثيق هذه الحكمة البالغة، فمنهم من يجعله كلاما مأثورا، تقوم نكتة الفائدة فيه على ما مغزاه أنّ ثلاثة من الناس اصطاد كلّ واحد منهم صيدا متفاوت الحجم، والقيمة الغذائية، فكان لأحدهم أرنب، ولآخر غزال، وأما الثالث ففاق جميع الصّيدين بحظّ اصطياد حمار وحش، وهو ما تستوعب جثته بسعة امتلائها جثتي الصيدين القليلين الآخرين، وإنّ الذي أنطق ثالث الصيادين من أولئك جميعا هو تفاخر الإثنين المقلّين في صيدهم، وتبجّحهم بالأفضلية والتفوّق، وقد طفق كلّ من القليلي الصيد يدّعي التفوّق على الآخر دون أن يحتسبا الصيد الثالث أو يقدرا تضاؤل صيديهما إلى جانب ذلك الهائل، وقد كان مقام التفاخر كافيا لأن يحرّك عواطف الساكت المتفوق المتواضع، والذي هو صاحب الفضل عليهما جميعا مبيّنا لهما أن مجموع صيديهما متضمّن في صيده الأوفر، هذه رواية تجمع بين قوة حكمة المثل، وأما من يجعل الصيغة المفتتح بها هذا المقال توطئة لما سيتوالى من تفصيل في كلية الموضوع، فقراءته على أنه حديث يقول: أخبرنا محمد بن العباس اليزيدي قال: حدّثنا أحمد بن الحارث الخزّاز، قال: حدّثنا المدائني عن مسلمة بن محارب، قَالَ: عن عثمان بن عبدالرحمن بن جوشن، قال: أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما للناس، فأبطأ بإذن أبي سفيان، فلما دخل قال: يا رسول الله، ما أذنت لي حتى كدت تأذن للحجارة، فقال له: يا أبا سفيان كلّ الصيد في جوف الفرا.

يتراءى لنا أن البعد الاستعاري في أصوله الانفعالية العربية القديمة يمكنه أن يتلبّس البنيات التعبيرية التي تُعُورِفَ عليها لاحقا في الدرس البلاغيّ، وإن الموقف الحكمي الذي أوردناه مُفتَتَحا لمداخلة أيقونة الاستعارة وبلاغة القراءة تستطيع منهجيته أن تتجاوز الاعتبارات الدّرسيّة، لتبلغ أسباب التفكير الفلسفي التي تنزّل عنها الانفعال البلاغي خلال تجلياته الأولية.

ولو تجرأنا بعض الشيء متسائلين عن أيّ السياقين يَجُبُّ الآخر، سياق بلاغة الاستعارة كما هي متداولة ضمن الزّخم الدلالي الذي زيّن منهجها الإبداعي وأثراه، أم سياق التناهضات المعرفية الحداثية اللاّحقة خاصة التطبيقية منها وتلك المستفادة من البلاغة الترجمية، حيث

السيميائية أحد وجوهه؟ فبتأملنا جدوى الثقافتين: التراث والحداثة، ومحصول ناتج التفاضلات الفكرية والفلسفية التي انسلخت عنها لاحقا، أمكننا الإقرار بكون التناهضات اللغوية الطارئة على المبادئ البلاغية الأولية، والتي هي مقام الحكاية، وتجليها ملابسات المناسبة واقعة جميعها موقع مغزى الصيد من دلالة المثل العربيّ السابق عليها، ووفق السياق القرائي الذي انتظمها، وليس رمز الفراء إذا إلاّ تعبيرا عن المنهج الإبداعي الشامل الذي يؤطّره منهج التفكير البلاغي المتمكن من نفوس الأعراب الذين ابتدعوا التوقيعات الجمالية الفنية الأولية خلال ذلك المضمار الذي استوثق بالمرجعيات البيئية والاجتماعية، حتى كان ذلك الاتساق المعرفي سببا في تعزيز تعلق قلوب الأعراب بخصائصهم الانفعالية، ومنها الانفعال ببلاغة الاستعارة، وإذا كانت بلاغة الاستعارة في نماذجها التطبيقية الدّرْسية ظلّت، بغاياتها التعليمية، محدودة الرؤية اتّساقا مع اعتقادهم أنّ: (... حدود الاستعارة معلومة...[1])، لأن العرب في صميم تفهّمها للنشاط البلاغي تفرّق بين العلم بكيفية العمل، وبين كون العمل ذاته، أي بين نظرية الإبداع ونقده، وبين مزاولة الإبداع ذاته وتعاطيه[2]، وهذه نكتة ينبغي تأملها مليا.

حيث ينبغي لنا الاحتياط في فهم هذا الموقف النقدي، وربما قالوا بهذا التحديد محتاطين مما يَتَغَوَّلُ من الفكر ويشذّ، فقد يتجاذب الشاعر مستغرب المعاني حتى تطوّح غوايتها بفكره في مهالك المحال، والاستغلاق، وأما إذا هذّبها الشاعر وعدّلها بحسب ما تقتضيه بلاغة الإغراب الداخل تحت تفهّم الحسّ، فستكون بلاغة إيهامها مستحسنة تبعا لندرتها، وعلى الأرجح فإن الكيفيات البنائية للّغة لا تكاد تخطّئ تقدير الإحاطة بمسوغات الدّلالة بحسب ما يتحقّق من التراسل التفهّمي الواصل بين الوعيين: وعي الحسّ، ووعي العقل، ولعلّ هذا الوازع البلاغي االمعزّز بروح الإبداع هو الذي نحتمل في ضوء مرونته، لياقته تبعيدات أبي تمام الاستعارية.

التّأطير الرّوحي للسّلوك الدّلالي الاستعاريّ:

ترتسم الاحتفالية الدلالية وفق الغاية الأخلاقية المستحكمة من نفوس الأعراب الذين افترعوا فنونها أول خطرة؛ لذلك فهم يجمعون كل قواهم الروحية تحصيلا لمخترعاتها، وهم يتوسلون بها في كل مراتع الالتذاذ التي يتوخونها، من ذلك استحبابهم مختلف المبالغات في الاستئناس بمؤاكلة الضيوف، فيبسطون من القول والتندر ما يدلون به على سعة الخاطر، وطيْبوبة النفس، ثمّ ما تنفكّ هذه الاحتفالية تقوى وتتمتّن إلى أن تبلغ بهم هذه النشوة من التّعشّق والتّحبّب والتلطّف، مرتبة من السمو الخلقي يتجلى في كون البلاغة، في عرفهم، ضربا من قرى الأرواح[3]، وغذاء الروح هذا هو الذي تجتمع عليه قلوبهم، حتى كأن أفئدتهم تهوي غاوية إلى شعاب كلّ قول جميل تتقرى برواء عيونه النضّاخة، متنسمة زهو الانتشاء، فتدفأ به بعد برد، وتشبع بعد مخمصة تَمْشي الخَيْزَلَى ويدفئها زُخْرُف القول، اعتنى البلاغيون العرب بهذه الآصرة إلى ما قد يفوق درجة العشق ملحقين إياها بدلالة المريدية[4]، وليس ذلك إلاّ لتقديرهم لحميمية التواصل الروحي بين طرفي الخطاب.

ونظرا لشدة تواطؤ أفئدة الأعراب وتوافيها على أسرار التواصل فيما بينها، بحيث تكون تلك الآصرة الروحية فيما بين الناس سببا تميز اللسان العربيّ إلى التميّز في البيان بين الألسنة الاجتماعية الأخرى، من حيث تمتع اللغة العربية بكثرة الإحالة على النشاطات الروحية في كل نزوع إلى التسامي باللغة من كونها مجرّد وسيلة للتواصل الغائي إلى نبرات حميمية، وأصوات لغوية مكيفة ومحسوبة حسيا وفق الكيفيات الانتظامية التي تجعل من سياقها اللساني عبارة

---

[1] الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، أبي عبيدة الوليد بن عبيد، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار المسيرة، ص: 243.

2 ينظر، ابن خلدون، المقدمة، ج:2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ص:1082.

[3] ينظر، السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، بيروت لبنان، دار المعارف العلمية، ص:86.

[4] ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي 1968، ص: 81.

أدبية، أين يكون لزاما على المرسل أن يبذل زخما عاطفيا، وجهدا حسيا عفويا، هو بمثابة الالتزام الروحي، هو العقد الروحي بين المتراسلين لتحقيق شروط البلاغة.

ونظرا للنشاط الدلالي الذي تتبني عليه سيميائية الاستعارة، التي هي خيمة المعارف اللغوية الفنية الإنسانية جمعاء، فإن الدارسين الذين تحاموا ترسيم قانون الاستعارة ظلوا في حاجة إلى استيفاء شروطها الانفعالية، نستطيع التدليل عليها: هي تلك الفضلة الدلالية الافتراضية التي يحتمل السامع بقاءها غير مقولة في نفس المتكلم، والتي استعصى على لغة الحروف استيعابها، ونحسب أن كتاب أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحتري قد جاء خصّيصا لقتل الهوية بين المتصور والمعيش؛ لأنه وازن بين المعاني الشعرية وبين ما يقابلها في استعمال العادة والعرف والبيئة والاجتماع.

يمكننا تقدير الجوانب الروحية التي رسّمت الأبعاد الانفعالية للدلالات البلاغية، وما كان لها أن تتّسق لها طقوسها البلاغية إلاّ بعد أن صارت بمثابة الميزان الروحي والنفسي والانفعالي الذي يقبل في ضوئها توقيع الدلالة البلاغية من عدمه، وربما كان مُسْتَمْلى ذلك التقبل من عدمه بالاحتكام إلى الخصوصية البيئية والاجتماعية بكل مستتبعاتها الحسية، والتي تلبسها النموذج البلاغي الأوليّ، إذ لولا تلك القناعات الحياتية لما استوت لهم تلك التعابير، ولولا تقبل الحس لتلك التوقيعات البلاغية لما تولّدت الأساليب.

لقد لاءمت الدلالة الاستعارية هذا المناخ البيئي المفعم بالنشاط الغنائي[5] حيث صادفت الأدبية الاستعارية أشكالا من الانزياح المورفولوجي والتركيبيّ، فقد ترسخ لديها إلف المذاهب البلاغية انطلاقا من التناغم القلبي، والنفاذ إلى أكوان الأشياء التي تقع تحت طائلة ملاحظاتها، وقد استوت لها أساليب وفاقا (.. لغلبة حاجة أهلها إلى التصرف فيها، والتركّح في أثنائها، لما يلابسونه ويكثرون استعماله من الكلام المنثور، والشعر الموزون، والخطب والسجوع، ولقوة إحساسهم في كلّ شيء شيئا، وتخيّلهم ما لا يكاد يشعر به من لم يألف مذاهبهم)[6].

ولا يمكن للغة أن تحل هذا الموقع العزيز من الطبيعة الأعرابية إلاّ بناءً على معايشتهم المستمرة لكل أشكال الانفعال الحسيّ بقيمها التعبيرية إلى درجة التشبّع، وأنهم في بعض المخاطبات يستعينون بدلالة الحال النائبة مناب اللفظ[7]، ولعلّ هذا المَحَزّ من إصابة سيميائية الاستعارة، هو ينقل العينة اللغوية المشحونة بالتسامي الاستعاري من كونها مجرد دليل لغوي إلى قيمة روحية تتجاوز مرتكزات الدلالة اللغوية العادية، وصولا إلى الاعتداد بفاعلية الانطباع الذهنيّ الذي يتجاوز العناصر اللغوية المرقومة المحصاة، واستجابة لهذا التذبذب في تحديد أثر البنية اللغوية في تحديد الدلالات، فقد بدا واضحا على السيميائيين اضطرابهم في تحددي مفهوم الرمز الذي يعني حاجة الحداثة البلاغية الماسة إلى الاستعانة بالسياق التراثي، خاصة حينما يتعلق الأمر بالميثولوجيا العربية.

وبناء على هذا الطموح اللغوي الذي احتملته بلاغة الاستعارة، فإن المزية المحسوبة لبنيتها الدلالية تكمن في مساهمتها في تخليص المعنى من هيمنة القياس النحوي، وبحصول هذه الروح فقد استرجعت اللغة العربية ثراءها التجريبيّ، وقد صار تبعا لذلك الاستعانة بكل دالّ يقع في حسبان الحسّ ليتدالّ لديهم حتى المصمت من المعنى، أي الكون الدلالي المائع السابح في عوالم الحس اللاّصوتية، أي تمثيل المعنى بغير سند لفظي مع المصرح به من المعنى لفظا[8]،

---

[5] ينظر، هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة: محمد العمري، الدار البيضاء أفريقيا الشرق 1999، ص: 85/ 86/87.

[6] ابن جني، الخصائص، ج: 1،، تحقيق: محمد علي النجار، ط: 3 بيروت عالم الكتب، 1983، ص: 215.

[7] ينظر، نفسه،ج: 1، ص: 285.

[8] تعتمد الدلالة في بعض أوجهها سياقا إشاريا يكون معناه مرتبطا بشاهد الحال، ومتطلبات المقام مثل قول الشاهر، هذا الذي تعرف البطحاء

وإن في حذف فضول الكلام والاكتفاء منه بما يحيل عليه من الإشارة والدلّ والتعشق في تمثيل دلالة الخطاب والتثني لهو مما تجتمع إليه تقاليد الأعراب البلاغية، حتى تتلخص قوة ذكائهم في بلوغ الأسباب التواصلية الاستعارية التي يتطلب فكّ إغماضها الدلالي الاحتكام إلى المرجعية الاجتماعية التي قلنا بها (فالتأتي والتلطّف في جميع هذه الأشياء وضمّها، وملاءمة ذات بينها هو خاصّ اللغة وسرّها وطلاوتها الرائقة وجوهرها...)[9].

ونحسب أن الإجراء البلاغي لا يكاد يفرق عن السلوكات الحياتية الأخرى، مشاكلة، وتفهّما، وأساليب، وبناءً على هذا التناغم الوظيفي بين اللغة العربية والمجتمع الأعرابي الذي توقعت عباراتها بمقتضياته، فقد ترسخ في مفهومهم ما هو كفيل بإنتاج مقاييس الانزياح الدلالي التي يهرعون إليها كلما أشكل عليهم التأويل وتشعب، وبالتوافق مع هذه القناعات التواصلية التي استمدّوها من مختلف الوظائف الاجتماعية، فقد حصل لديهم غايتان دلاليتان، واحدة يحتكم فيها بالقاعدة والقياس، وأخرى هي محل اجتهاد وتأويل، صارت مائزة لمختلف إجراءات تصعيد أو ترقية لمستويات الدلالة منذ أن كانت لا تتعدى غاية الإخبار، ثمّ كانت توصيفا، فتشبيها فاستعارة، حيث ظلت هذه التجليات الدلالية متطلبة دقة تمييز وزن الفوارق البلاغية التي بها يستدل على تمهر المنشئ في إصابة المحزّ لدى كل تجريب إنشائي[10].

لقد قاد المنشئين حرصُهم البالغ على تحقيق عذرية الكلام، أي أوليته المُفْتَرَعَة، إلى الاهتمام بكل أساليب التوقيعات البلاغية المؤدية إلى ذلك، يصدّق هذا احتفال العرب بميلاد الشعراء، وقد بات البلاغيون مقتنعين بأن (.. الذي يورده الأعرابي وهو محتذ على غير مثال أحلى في النفوس، وأشعى في الأسماع، وأحق بالزيادة والاستجادة مما يورده المحتذي على الأمثلة...)[11]، ولنا في ما رواه ابن سلام الجمحي[12] من التحايز البلاغي بين الحجّاج بن يوسف، وبين ابن يعْمر – وهو أحد مراجع المشيخة العربية المشهورين إلى جانب صحار المنطيق في إصابة عيون الكلام العربيّ – حين استغرب الحجاج أن يجيء هذا السّمت من الكلام الرفيع والبلاغة الراقية على لسان ابن المهلب بناءً على العبارة منكرا نسبة التفوق البلاغي على لسانه، والمحفوظة في العبارة التالية: إنا لقينا العدو ففعلنا واضطررناهم إلى عُرْعُرَة الجبل، وكان قد أصاب في التقدير، والأسلبة، والتوقيع، وقد كان تشكّك الحجاج في موضعه، قرنًا إياها ضمن سياق مستويات الكلام مرتبطة في عرفهم بمستوى طبقة الناس الصادرة عنهم، وبالفعل فإنّ توقيع بلاغة هذا الخطاب الفني الراقية هي من ارتجال ابن يعمر وإنشاءاته الأسلوبية البديعة والتي كان ما بين منشئها وبين الحجاج سابق احتكاك وجدل كما أسلفنا القول فيه.

والعرب تعتمد في إجراءاتها البلاغية دلالات شبه اجماعية، فتتفق على مرجعيات أصول اللون وليس تعليم هذه الحدود، وترسيم القياس المرجعي في مثل هذه الدلالات إلاّ تحسبا منهم لإصابة مصداقية الإلحاق لدى التشبيه أو الاستعارة، نعني تقييم العلاقة بين الناقص والتامّ الذي يقتضيه تعلق المتشابهين، مع إصابة دقائق الإلغاز في تصوير الفروق بينهما، وتحقيق النكت الملذوذ لأنّ (... الفنّ يتغذّى من نفس العواطف التي يتغذّى منها المجتمع...)[13]، واللغة بوصفها قائمة، حتى لدى السيميائيين، على المطلق فهي كل شيء ولا شيء[14]، فقد سبق للجاحظ منذ بواكير التنظير البلاغي أن ارتأى شيئا شبيها بهذا إذا لم نقل مطابقا، حين عمّم وسائل الدلالة، وجعلها تستفيض على كلّ

وطأته... فاسم الإشارة مقترن معناه بالقيمة التسجيلية للحدث الشعري، ولا تستطيع أيه وسيلة دلالية أو إبلاغية أن تنوب منابه.

[9] ابن جني، الخصائص، ج: 2، ص: 125.

[10] المحزّ، توصيف درسي لقيمة التأوّج البلاغي، ودقة الإصابة في إصابة جوهر المعنى في رسم الدلالات الاستعارية المستحلاة.

[11] الآمدي، الموازنة، ص: 24.

[12] ينظر، طبقات الشعراء بيروت دار النهظة العربية للطباعة والنشر، ص: 6.

[13] جان ماري جويو، مسائل فلسفة الفنّ المعاصرة، ترجمة: سامي الدروبي، ط: 2 بيروت دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1965،ص:65.

[14] ينظر، قاسم سيزا، نصر حامد أبو زيد، مدخل على السيميوطيقا، ط:2 الدار البيضاء، منشورات عيون، ص: 10.

المكونات المادية والروحية، تسلط على الخارج لاستقراء السمات والأمارات، ويتوسل بها لاستنطاق الغامض والمعمّى، حيث يستعان خلال هذا الإجراء بكلّ ما هو قمين بالدلالة والبيان اللذين يحتاج فيهما إلى (... تمييز وسياسة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن..)[15]، حيث يمكننا ملاحظة الحراك الوظيفي الذي تتناغم في أدائه جملة من المكونات الدلالية، ليست لغة الصوت سوى أحد علاماته التي تأخذ طابع النشاطات (... لا متناهية في المطلق، غير أنّ مشاريعنا الثقافية تقوم خلال ذلك بتأطير، وتنظيم وتكثيف هذه السلسلة غير المحصورة من الإمكانات...)[16].

والعرب تعتمد، لبلوغ الغايات الدلالية القصية، شبه معجمية ضابطة للتفاعل القيمي بين أكوان الأشياء، حتى كأنها باعتمادها تعليم مقاصد الدلالات تتفادى الوقوع في الإخلاء[17]، ونظرا إلى تفاوت الفهوم في تقدير معنى الفائدة الدلالية، والمنهج الذي ينتظمها، وكيفيات تقييم الظاهرة الدلالية، ثمّ تذبذبها بين الإجراء الذاتي، والسلوك المعرفي الجمعي، كلّ هذا الاضطراب الذي أفرزته فلسفة المعنى قضى بأن يشتهر قول للكندي تداولته كتب البلاغة، يقوم على عدم الأخذ بالفوارق الدلالية النحوية المتقاربة الإيقاع، لذلك قال لأبي العباس المبرد: (... أجد في كلام العرب حشوا، يقولون: عبد الله قائم، ثمّ يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون:إن عبد الله لقائم والمعنى واحد...)[18]، فما كان من أبي العباس إلا أبان عن ارتباط كل أسلوب من تلك الثلاثة بهيئة خاصة أنتجته، حيث تفيد الصيغة الأولى مجرد الإخبار، وتزيد عليها الثانية بأن تكون جوابا عن سؤال، وتتفاضل الثالثة عن تينك بأن أفادت إجابة عن إنكار منكر، فالتدرج في المعنى البلاغي مقتضٍ تزايدا في بنية الخطاب، والزيادة في المبنى مفضية بالضرورة إلى الزيادة في المعنى.

لقد سعى البلاغيون إلى تحديد مبادئ الانفعال بالمعنى، واجتهدوا في توضيح بنيتها وتعالقاتها اللفظية، وتفاوت التوقيع المعنوي بين كلّ وجه من وجوهها، فلم يشذّ شاهد أدبي على ذلك التاطير النظري، وتوسموا زيادة على تبين المبدأ ما يمكن أن تقوم عليه النشاطات الدلالية الاستتباعية التي يقود إليها نموّ الدلالات، وثراء الأساليب، لذلك فقد احتاطوا بأن رسموا بعض المبادئ الدلالية القائمة مقام المرجع لدى كل إجراء تفريعي انزياحي يتطلبه توسيع المعنى، فجعلوا على سبيل المثال من خافية الغراب أصلا للون السواد، والقار، إذ هما سقف لا يزاد عليه في إجراء المفاضلات، وقالوا: (... فإذا شبهت شيئا بها كان طلب العكس في ذلك عكسا لما يوجبه العقل، ونقضا للعادة، لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف، لا أن يتكلّف في المعروف تعريف بقياسه على المجهول، وما ليس بموجود على الحقيقة)[19]، فإذا قاربت بين دلالتي كون شيئين استوجب ذلك مراعاة هذه البنائية المعينة على تحقيق التوقيع الاستعاري للمعاني والدلالات، بحيث تقصد خلال إيقاعك التشبيه والاستعارة تبلغ بها درجة من التمكين لا تترك للنفوس بعدها منزعا تطلبه فوقها، ولقد عملت الفجوة الدلالية التي تطوعوا في توظيف تخليلها السياقات على بثّ أسباب التقبل القرائي (... كانوا يستحبوا أن يدعوا للقول متنفّسا، وأن يتركوا فيه فضلا...)[20]، ومعنى هذا: أن الكتابة العربية ظلت تحتفظ بذلك الحيز التواصلي الذي يطلّ القارئ من خلاله، فيساهم بفضل ذلك الحضور الفعال في إنتاج دلالة الخطاب.

---

[15] الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 14.

[16] ge, Bruxelle, Ed; Labov. 1988, PP 255_256. U. Huco, Le signe ,Histoire et analyse d'un concept; trad, J _M. Klinkenber

[17] الإخلاء أو الغسل في البلاغة العربية معناه خلو الكلام من الفائدة أو الإبداع، ينظر، الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط:5، بيروت دار المعارف، ص: 115.

[18] السكاكي، مفتاح العلوم، ص:74.

[19] عبدالقاهر الجرجاني ن أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة بيروت لبنان، ص: 192.

[20] الجاحظ، الحيوان، تحقيق: يحيى الشامي، ج:1، ط:3، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1990،ص: 486.

ولو تأملنا شدة تهافت الشعراء على إصابة الغايات القصوى من المبالغات الاستعارية، وتخْليطهم في مجاذبة أسباب تجريب الإنشاء في سبيل بلوغ توقيعاتها الإطرافية، ألفينا هذا المسعى تتأوّج أسباب البراعة فيه حتى تبلغ درجة التّهيج الذي يستقي بكل صدق قواعد مقارباته التمعينية بناء على ما في تقاليد أولئك الأعراب اللغوية وأعرافهم التّمعينية من كيفيات وأساليب، يَتَغَوّلُ الشاعر منهم في تطلّب المبالغات والتطوّع فيها بقصد من المشاكلة بين العبارة ومدلولها حتى تلين له شكاة الصعب منها، ويُروَّض له الوحشيُّ من الأساليب النافرة لم يحتسبها، ووفاقا لهذا، فقد تحققت للنابغة الذبياني، والعجاج وابنه رؤبة، وهما من رجاز العرب، مزية افتراع التسميات والانقضاض بتشجيع من النفس على خصوصياتها الإيقاعية الفطرية، حتى ينشأ عن قوة فورة تلك الحماسة والتطوّع فعل اقتراح الأساليب التعبيرية ما سبقهم إليها أحد من الشعراء، وما كان لمكسب الاختراع ذاك أن يتسهل مجيئه على أياديهم لولا ما بلغه هؤلاء الذين ذكرنا من شدة التطوّع في افتطار بلاغات القول، والانقضاض على مبادئ الأشياء في مكامنها الطبيعية[21] حداً من الشعراء.

ولقد اهتم اللغويّون العرب بالكلام الذي ينجم عن مبدأ الانفعال بإلقاء التسميات، واختراع كل جديد مستطرف في مضماره حتى بلغ بابن جني أن خصّه لأهميته[22] بباب أسماه: شجاعة العربية، فالحسّ، حين يتشبّع بروح الابتداع تشتد فورته، ويقوى تهيّجه، فيتحقّق استرواحه المعاني، ويتشجع في احتياش اللغة مقموشة دون تخير، ويزداد اتساق هذا المؤدى المعرفي، ويتدعم حتى يفضي إلى حصول امتياز لغة الشعر بناء على كونها متنزلة عن القوى الروحية والنفسية الطابعة لجرأة الخطاب[23].

ويكون من المنهجيّ جدا أن ندعم هذا المناط برأيين؛ أحدهما لعبد القاهر الجرجاني يؤكّد فيه مدى أهمية الانسجام الذي تسلكه الذات المبدعة بناء على ما تحقّقه من قوة الانخراط في مجاذبة أطراف الحديث في الموضوع المعرض للإنشاء، حيث يكون التهيّؤ لروح التعاطي والتشبع بالإخلاص لطقوس الإبداع كفيلين بإصابة الإتقان البلاغي، يتمثل هذا الإجراء في إرسال المعاني على سجيتها، وتركها حرة في استدعاء الألفاظ الملائمة بين المقام والمقال، ولسني القول والحال، وإنها لو توافرت لها هذه الخصائص الإبداعية، حققت شروط الابتداع، وحازتها بجدارة[24]، وأما ثاني ذينك الرأيين المستعان بهما، فهو رأي الآمدي الذي أعطى أهمية بالغة لمنهج توجيه المعاني، وهو الجانب من الإجراء الدلالي الذي لا تجلّيه الألفاظ، ولا تشخصة العبارات، ولقد أجهد النقاد أنفسهم طويلا في إضناء أنفسهم باستنطاق نوايا الشعراء والمنشئين للبلاغات من غير فائدة تذكر، حيث فاتتهم نكتة تقدير التواصل الفني المقتضية أصلا تنبه المتلقي إلى أساليب توجيه معاني الألفاظ، بعد أن يبطل العمل على تكريس الاحتكام إلى إعنات الفكر في احتمال نوايا الشعراء، فغالبا ما تغرينا سير الشعراء والكتاب حين نقتفي آثارها آملين أن نتوصل انطلاقا من أسرارها إلى فهم أسرار بلاغاتهم المتوارية[25].

وأمام هذا التفهّم الفطري لعملية الإبداع، كما تضمنها التفكير البلاغي العربي منذ أوليات تجلياته، فإن كل نتاج لغوي واقع في مضماره، مستمدّ توقيعه مما قد ترسخ في أعرافهم على شكل جملة من الإجراءات البنائية المقتضاة تجاوبا مع استحبابهم تحكيك المعنى وتهذيبه ومختلف العناية به، وقد قادهم حرصهم الشديد في تحسس المادة اللغوية لسانيا وسماعيا إلى إصابة المقادير التعبيرية التي يصرفون وهمهم إلى تحقيقها، وكراهية الخروج عن التعديل، بحيث يكون قمينا بهذا القانون الذي قوامه الاستواء والتعديل أن يراعي الائتلاف والتوازن والتناغم والتكامل في بنائية الأساليب، وقد كان هذا كافيا

[21] ينظر، ابن جني، الخصائص ج: 1، ص: 369.
[22] ينظر، الخصائص، ج: 2،ص: 360/ 441.
[23] ينظر، نفسه، ج: 2،ص: 188.

[24] ينظر، عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 10.
[25] ينظر ن الآمدي، الموازنة، ص: 159.

لأن تترسخ قيم توزين الكلام في اعتباراتهم الإنشائية، حتى صار غرضا يتقصد، ومنهجا يحتذى، وهم إذ يحيلون إلى الحسّ في تقدير مستلزمات بلاغة التعبير، إنما يحققون هوية اللاّشعور الباعث على كلّ نزوع إنشائي.

تتأزّم معارفنا البلاغية، وبالتّحديد، حين تتعلق بموضوع الاستعارة، انطلاقا من كوننا لا نستفيد منها لافتراضيتها المطلقة في الحياة العملية، فمعظم الخبرات المعرفية التي يتقنها القارئ، يحصل عليها بناء على نية منه في المساهمة في إعادة إنتاج مكونات الخطاب، وهو لا يقدم على ذلك الفعل الثقافي إلاّ متساندا إلى مصداقية الواقع، ولا يفوتنا أن نعترف بتجاذب كل من الذاتية وموضوعية الواقع وصرامته في اختبار المعرفة والوعي المتنزلين عن الممارسة البلاغية، لذلك وتبيينا لهذه الفكرة يمكننا ملاحظة الجهود التي بذلها الآمدي في تمحيص الآصرة بين استعارات أبي تمام المُمْحِلة وبين طبيعتها الوظيفية في الواقعين: البيئي والاجتماعي العربيين، فقد ظل يقف عند مفردات استعارية بعينها هي بمثابة الأقطاب عارضا إياها على تقبل الذوق الجماعي لها من عدمه، فوقف عند ريح الصبا، وتوصيف المرأة، والأرض وغيرها من المثيرات الدلالية المحورية في البلاغة العربية أسماها أخطاء أبي تمام في اللفظ والمعنى.

ونتصور أن النزوع البلاغي يبقى دائما في حاجة ماسة إلى امتلاك المعايير والأدوات، سواء أكانت روحية أم لفظية، والتي يستطيع بفضلها التعامل مع اللاّمعقول، لأن الجانب الأوفى من النزوع البلاغي واقع في طبيعة ذلك التفكير، وقد كانت المعاني تؤجّج أحاسيس أبي تمام فلا يستطيع بفضل قوة الانخراط في مجاذبة المعاني الفكاك من أن يقع في المحال، وإن تلازم الواقع والمحال وتماهى بعضهما على الآخر يفوت على الشاعر ضرورة الانقطاع عند حدود المعقول (.. وقد كان يطلب البديع فيخرج إلى المحال...).

يمثل تدخل المعرفة التعليمية، بوصفها منهجا شائعا يتطلبه تلقين المعارف في أوليات الحياة، حيزا انتقاليا، يشكّل فيه هاجس التقييم المعرفي الوازع المسيطر، والذي يعطّل بثقافته العامة كل نية للتحرر في سبيل تجديد المفاهيم الفنية والجمالية والتواصلية لبلاغة الاستعارة، إذ ما نزال نتهيب كلّ تحديث يعوّل على اعتماد النموذج الشعري الحداثيّ تفاديا لكل ما من شأنه أن يهز القناعات اللغوية الراسخة فينا، وبديلا عن التشجيع في ذلك الاتجاه، نلجأ إلى النموذج الشعري العربي الجاهلي القديم، ونحاول أن نجد لاغترابنا في زمانه المسوغات لذلك الهروب الوجودي؛ لأننا نحس في أنفسنا، كأننا عاجزون عن رؤية ذاتنا كما ينبغي لها أن ترى.

إن من شأن حصول الانسجام الحسيّ أو الانفعالي بين القلب واللسان[26] أن يلهم الذات المبدعة إنشاء البلاغات المستطرفة، ويكون حاصل الابتداع بناء على التهيّؤ النفسي القاضي بمواطأة قلوب الأعراب ألسنتهم[27]، حيث تؤدي سمة الانسجام إياها بين القلب واللسان إلى تسهيل عملية القبض على صور الأشياء المتدالّة فيما بينها، فلا يكون الإجراء اللغوي المعقول حائلا دون إصابة الغايات البلاغية التوقيعية، وصولا إلى تحقق الإخراج الفني اللاّئق بالموقف التعبيريّ المتوسّم.

ولما كان لابدّ من مرتكز وظيفي يبسط أسباب التقبل البلاغي، فقد سعى البلاغيون العرب إلى الاجتهاد في الإحاطة بأسباب توثيق هذا الاعتماد، منيطين إياه بمبدأ الاستخفاف والاستثقال[28]، الذي هو جانب حسي مهيمن، ناظم لمختلف الانسجامات متمثلا في الجنوح إلى المستخف، والعدول عن المستثقل، وهذا جهد يجمع بين النفساني والجسماني يصدقه الكون

---

[26] ترجع العرب الجمال تارة إلى النفس، والأدب، واللسان لأنه سبيل التأنق في الكلام والمعاني، ووسيلة للتحبّب، والتأثيرات العاطفية الأخرى، فالمرء مخبوء تحت لسانه، ولسان الفتى نصف ونصف فؤاده، وفي هذه دلائل اكفية عن مدى خطورة اللسان في المفهوم العربيّ.

[27] ينظر، الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ط:1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع 2005، ص: 17.

[28] ينظر، ابن جني، الخصائص، ج: 1،ص: 162/161.

الخلقي للإنسان، لذلك صادفنا القول بمثل هذا المبدأ البلاغي معتمدا لدى البلاغيين الغربيين، يسمونه في غالب التقديرات بعمل الجملة العصبية إلاّ أن هؤلاء الآخرين أكثر إبانة لتشريح خصائص هذا الإجراء البلاغي الحسي، فالكلام لديهم (... يكتسب بتأثير التنبيه العصبي قوة وإيقاعا واضحين، فالخطيب إذا تحسّس، رأيته يدخل على كلامه من الوزن والإيقاع ما لم تكن تلاحظه في أوّل الأمر، وكلما ازداد فكره قوة وغنى ازداد كلامه إيقاعا،وموسيقى...)[29]، من هنا، وانطلاقا من هذه الحقيقة الإنسانية التي تصدق توافق السلوك اللغوي الإنساني لدى كل الشعوب، فإن سيميائية الاستعارة تكون بمثابة الامتيازين الأسلوبي والدلالي، وهي معلمة لبلوغ هذا التأوج بالقيم الإطرافية التي تخرق بها حاجز النموذج اللغوي الملخص لكل تجربة أدبية.

لقد ورد في خصائص ابن جنّي[30] ما أفاد ذات الفائدة التي توسمناها لدى الجاحظ في ترسيم علامات التعجيب البلاغي حيث يقول في مطلب تجذّر أسباب التعجيب اللغوي (... إذ ليس غرضنا فيه الرفع، والجرّ والجزم، لأنّ هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه، وإنما هذا الكتاب مبنيّ على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادي، وكيف سرت أحكامها في الأحناء والحواشي...).

أصبحنا نرى إلى الترقية الدلالية التي تسديها بلاغة الاستعارة، بعد الذي اجتمع لدينا من أسباب التوقيع الإمتاعي للدلالات والمعاني، على أنها مطلب حسي تستفيده الذات المبدعة من ثقافة المجتمع متمثلا في قيم التشبع المعرفي المختصّ بتوليد الدلالات انطلاقا من المعنى الأصلي، فالاتساع في معاني الأشياء مطلب حسي تستفيده الذات المنشئة للقول، متساندة إلى التفنّن في إغناء منظور المبدع إلى معادن قيم الأشياء، ويكوِّن ذلك، وإنما لبّ الجدل قائم في تنازل الدلالات، والمعاني الاستعارية متمركزة

[29] جان ماري جويو، مسائل فلسفة الفنّ المعاصرة، ص: 197.
[30] الخصائص، ج: 1، ص: 32.

حول درجة النقلة أو مسافة التبعيد الدلالي المستجدّ من مركز الدلالة النووية[31]، ولعلّ سوء التفاهم بين المنشئ والقارئ على هذا المحل من التداولية هو الذي أوهم الآمدي بأن يضع بابا خص به: تخطيء أبي تمام في المعنى[32]، وصواب ذلك أن المعاني البديعة لا تخطّأ، لأن في هذا الإجراء إقرارا ضمنيا بعدم توافر المستوى القرائي البديع المعادل لمستوى الامتياز اللغوي الطارئ.

ومع أنّ بيرس Pierce، عمل في منظوره المنهجي المقارب بين السيميائية وبين الدرس البلاغي التقليدي سعيا منه إلى ترقية الدلالات اللغوية الكلاسيكية من وظائفها التقليدية إلى مستوى دلالي فلسفي يجعل منهجها أكثر شمولية، وتجاوبا مع روح العصر، فقد ظلت الطاقة الاستيعابية المتمتع به كل نمط بلاغي الفضاء الخاصّ الذي يحفظ لكل نزوع تعبيري هويته المعرفية المبدئية، حيث يُرجَعُ في تقديرها إلى الخصوصية الفكرية التقليدية المحدّدة التي تقرأ في ضوئها، وهي التي عادة ما تستخلص من الأعراف الاجتماعية المحفوظة بحسب مقتضى الحال الموقع للخصوصيات الانطباعية باعتماد رصيد العادات والتقاليد التي يُؤَال إليها في تقدير إرسال المعاني وهو ما يدعونه: انعقاد الأسباب[33]، وهكذا يبدو جليا أن الاستعارة تضبط آليات قراءتها التبعيدية بالرجوع إلى التشبع المعرفي الاجتماعي، حتى لتبدو في شكل استخلاصات قيمية يلجأ إليها الوعي في امتلاك مفاتيح الفهم والتفهّم، فالقول البلاغي (... يرشق بالتغيير، والتغيير هو ألاّ يستعمل كما يوجبه المعنى فقط، بل أن يستعير، ويبدّل ويشبّه...)[34]، حيث يلخص التواشج الوظيفي في التشابه الأيقوني بين المشبه والمشبه به، وعلى الرغم من أن الدلالة الاستعارية هي دلالة اعتباطية بامتياز كونها لا تكتفي بالقراءة التأويلية

[31] نعني بالدلالة النووية الدلالة المركزية التي محلها نواة المنطلق من أصل المعنى النحوي أي الأصلي المشاكل لدلالة التسمية.
[32] ينظر، الآمدي، الموازنة، ص: 226/123.
[33] ينظر، السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 112.
[34] ابن سينا، الخطابة من كتاب الشفاء، تحقيق: محمد سليم سالم، القاهرة، وزارة المعارف العمومية، 1954، ص: 202.

الواحدة، نلاحظ أنّ السمة الدلالية التي مهمتها التقاط العوامل الدلالية المشتركة بين طرفي التشبيه تظل محورية الفاعلية باعتبارها الجانب الثقافي المستعان به في تنهيج أوجه الاستدلال[35].

والاستعارة بناء على خصوصية كونها الدلالي الخارق، لا تكتفي بالاستعمال الطبيعي للغة المستمدّ قيمه التمعينية من التقاليد الاجتماعية السائدة، بل هي تجتهد بكونها الاستعمال الفائق لاستعانتها بكلّ ما أوتيت من الطاقة الروحية الإنسانية، لتتجاوز حد اللّغة، بالغةً ضروباً من الفنية والجمالية هي مؤهلة لأن ندعوها طاقة دلالية فوق لغوية، فالإنسان البارع في المعارف النحوية والصرفية، وحتى اللسانية والصوتية لا توصله إلى بلوغ شروط القراءة الإبداعية الخارقة التي تتطلبها بلاغة الاستعارة، لذلك فإنه مجبر إن ابتغى غاية التطوع أن يستنجد بمختلف الفطن والمهارات الحسية والذهنية المؤهلة لذلك، بل لعلنا لا نخطئ التقدير إذا قلنا: إن سحر التوقيعات الدلالية الاستعارية مرهون تحقيقها بمدى تمهّر المنشئ في تبني التجاوزات اللغوية التي عادة ما ننتظر منها مخالفة النحو، وهو عالم تخييلي وتصويري مفعم بالتجنّن في تطلب المعرفة والشذوذ في مطارفها التي تبدو لنا أول وهلة بأنها هرْطقة وإمْحال، وكذلك كان شأن أبي فقد كان يستهويه طلب البديع فيخرج إلى المحال[36]. وحسب هذا التخبط الذي يشوب استعارات الشعراء أنه يمحو صفة العقل من النفس، ويقذف بالحسّ إلى الانقضاض على المعاني في مكامنها السحرية التي لا نتقبلها عادة لأول وهلة، نظرا لسمات التهوّس والتعمية التي يستوجبها تناهض المعاني الاستعارية على بَوْرِها[37].

لم يستطع الوسط الثقافي التقليدي أن يحافظ على الهدنة المفترض وجودها بين المنشئ والقارئ، من حيث تفوق أبي تمام في تبنيه للاستعارات المستغربة، وتحديه لمنهج العقل في تقييم الإبداع، يؤرخ لمساجلات نقدية، فقد ظلت مساءلات القراء المباشرة تطارد أبا تمام، محاولة ثنيه عن التمادي في تجاوز المعقول، غير أنّ المغامرات الاستعارية ظلت تتوارى عن الظهور، وتتسطح تارة لكي تتهابل أخرى وتتجنّن، ليتكرر ذات الإشكال مع شعرية أدونيس خلال حداثة عصرنا الراهن.

ونستطيع أن نميز بين اللذة الفنية الجمالية التي يفرزها إيقاع التقريب أو التبعيد بين كون الشيئين المتشابهين لدى تصويرهما لغوية، أي بلاغيا، وبين مستوجبات الإحاطة الحسية بقيمهما اللالية إيقاعيا[38]، حيث تكمن النكتة في موضوع المعاينة الذهنية الموازنة في الالتذاذ الحسي الذي يحصل من جراء إعمال القياس الذي بموجبه يحتفظ الوعي بصورتي المتشابهين في آن واحد، ونستطيع تشبيه هذه الحال ما يصادفه المتلقي من التوقيع البلاغي العجيب لدى تأمله حيز الجملة الاعتراضية، فالفهم خلال انشغاله بتخلل الدلالة العرضية المستثناة من سياق التعبير يكون ملزما بالحفاظ على السياق القرائي الذي كان خائضا فيه قبل أن تعترض دلالة الاستثناء الإعتراضي، ثمّ إذا هو فرغ من مجاز الاعتراض عاد مستأنفا الخيطية التي كان خائضا فيها، حيث كفيلا بهذه الانقطاعات والتواصلات الأسلوبية السياقية بأن تحدث لذة بلاغية تكون ناتجة في صميم تجلياتها من تفاعل الحس مع بلاغة الفصل والوصل الذي هو باب مكين في درس البديعيّ، وأما النقلات المفيدة تقليب الرأي بين المتماثلين والمتشابهين فمنطوية على التذاذ بلاغي الناتج من إعمال الوعي في فكّ العناصر التشبيهية الدقيقة، وعلى الرغم من كون هذه الوظيفة مركبة في إجرائها المعرفي نلاحظ أن

---

[35] ينظر، قاسم سيزا، نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا، ص: 95.

[36] ينظر، الآمدي، الموازنة،ص: 21.

[37] الأرض البور هي التي لم يسبق فلْحها، فبقيت عذراء قابلة لكل تسويم.

[38] يمكن مراعاة لذة الإجراء التشبيهي الشديد التقارب بين المتماثلين من خلال: معاينة آيات خلق الله في تشابه التّوأم والتذاذ فعل فكّ اللبس بين شخصيهما، أو طرافة اكتشاف الإلغاز في لعبة الأخطاء السبعة، أو بين مقارنة التحولات السيمائية بين مراحل التحول في حياة شخص بعينه خلال أطوار الحياة من خلال استعراض الصور التي ترسم مراحل تحولاته العمرية، كلّ هذه المعاينات كفيلة بإنتاج معرفة حسية قوية الشحنة الإيقاعية في أنفسنا، نتطلع إلى تجريبها بشغف.

العقل يستعين خلال وعيها بتكامل كلّ من بلاغة التوصيف أوّلا ثمّ التشبيه ثانيا، فالاستعارة ثالثا، إذ تعد هذه الثلاثة قيما بلاغية يهدي سابقها إلى لاحقها حيث لا يكون تشبيه إلاّ بعد تمحيص توصيفي، ولا يكون ثمة إيقاع استعارة إلاّ بعد تمرّس البليغ بإصابة الاستعارات البعيدة، حيث تستعين الذات القارئة خلال تلقي تلك البلاغة بمختلف القوى الحسية والروحية والفطرية، فالأشياء المتشابهة تزداد تعجيبا بلاغتها كلما احتار المتأمِّلُ في لمّ شتات المفارقات والتماثلات بين القيم المتداخلة، وخلال ذلك الإجراء يلجأ العقل والحسّ معا إلى عملية الاحتفاظ ببعض القيم والمزايا، إضافة إلى مختلف القياسات والحسابات والتوصيفات وسائر المهامّ التي يحتاج إليها الوصّاف والمشبه في التمييز بين أكوان الأشياء.

وفي خضمّ هذه العملية البلاغية اللغوية في ذات الوقت، يزداد التركيز في أنشطتنا الحسية، مع الاستعانة الضرورية بإعمال الخبرة والمعرفة كلما تعلق الأمر بحاستي البصر والسمع بوصفهما الحاستين الأنفذ في تعاطي قيم الحياة ضمن وظائفها الاجتماعية والبيئية، لذلك قيل عنهما بأنّ تلازمهما الوظيفي مشاكل لتلازم الأنثى والذّكر، ولأن قاعدة التشبيه تقتضي التباين بين الشيئين المشبهين أحدهما بالآخر لا التطابق والانسجام، فإنّ قوة ضمور الشيء الشبيه وخفائه في شبيهه موهم بأن الطرف الثاني من التشبيه المقارب به قيمة، يكاد يندغم إلى درجة من الحؤول تقارب عدميته، لذلك السبب تقع الحيرة، ويحدث التعجيب، وإن فكّ التشاكل بين المتشابهين مقتضٍ إعمال قوة الملاحظة لتبيّن الجزء المغيب من حقيقة القيمة الدلالية المعرضة للتشبيه، ولعلّ بلاغة قوله تعالى (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كلّ شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبّا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مُشْتبِها وغير متشابه انظروا على ثمره إذا أثمر وينعه إذا أينع إن في ذلكم لآيات لقوم يوقنون) قد أصابت هذا المحزّ البلاغيّ الذي اعتمدناه مناطا لتبيين مدى أهمية قبض الحسّ الفني على خصوصية بلاغة التطابق والتباين بين الشيئين المتشابهين من حيث التذاذ الذات القارئة للفوارق الخصوصيات الملتقطة، دلّ على ذلك النعت بالاشتباه أي التَّماهي والامتزاج، تضمّنته بنية: اشتبه الصرفية المفيدة سرعة انقضاض فعل التقاط صورة الشيئين دفعة واحة تارة، وبالتشابه الذي يفيد التراخي في إدراك تباين المتشابهين على تقارب واعتدال واحتفاظ كلّ طرف من الكونين المتشابهين بهيئة صورته المانعة من التداخل والامتزاج.

ونظرا إلى أهمية المناط الحسي من الإجراء البلاغي الاستعاري، مضافا إلى كل المتعلقات الدلالية به، من توصيف وتشبيه، فقد ألفينا ابن سلام الجمحي، يؤرخ لمبدأ المقاربة بين عوالم الأشياء بإسناده الفطنة الشعرية التي ترتكز حقيقة على مهارة التبلّغ الحسي، لذلك فقد أسند النبوغ في ذات الاختصاص إلى التمحيص الحسي المقارب بين جوهر معادن الأشياء، حتى بلغ به التطوّع في هذا المذهب إلى أن لاءم بين القصيدة والجارية، حتى كأن مواصفات الأناقة والجمال في هذه مستوحى من مواصفات تلك بامتياز[39].

ويتدرج التفكير البلاغيّ الاستعاريّ معتمدا مبدأي الحسّ والعقل، وقد سبق للّغويين العرب أن تداولوا هذا المرتكز الدلالي وتمثلوه في جدليتي الحقيقة والمجاز من حيث قولهم:إن الاتساع فاشٍ في جميع أجناس شجاعة العربية[40]، يشمل هذا الاعتبار القيم الدلالية الداخلة تحت الوهم، وحقيقة فإن المدلول في عرف البلاغيين الغربيين من السيميائيين كثير الحؤول، شديد التماهي، لا يستقرّ على حال لأنه يستقي ضوابطه المعنوية من أكثر من مؤثر حتى يبلغ درجة ما فوق الدليل فيخضع لنسقية

[39] ينظر، ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص:3.
[40] ينظر، ابن جني، الخصائص، ج:2، ص: 447.

الكلام، ومختلف المؤثرات الدلالية الفاعلة في وعي القارئ[41].

ويتجاذب قطبا الحقيقة والمجاز في حيز التعاطي الاستعاري، ويتغوّل التنهيج لقيم الفن، والجمال حتى قالوا إن أصل الدلالة المجاز، وهو إذا تكرر بعد المبدأ لحق بالحقيقة من كثرة تداوله ومعاودة اعتماده، حيث يتطلب توثيق المعرفة المجازية على كل مستوياتها التقريبية أوالتبعيدية ضبط الدليل كما هو متعارف عليه لدى بيرس (Pierce) حيث تتشكل طبقات الإحالة (... ويعني ذلك أن يخلق دليلا موازيا أو أكثر تطورا في ذهن ذلك الشخص، والدليل الذي يخلقه، أسميه مؤوّلا للدليل الأول...)[42]، لذلك فإن التوقيعات الاستعارية المجراة على موضوع المرأة بوصفها البؤرة المسلط عليها التوصيف ما يزال قادرا على استيعاب الثراء التنويعي المتناهض تباعا على حقله الدلالي المتمتع بقوة نشاط حسي منقطع النظير، إذ ما يزال الشعراء يتحامون تشعير موضوع المرأة فلا يقوون على استغراقه البتّة، والحقيقة أن التنوع البلاغي لا يسلط على ذات الموضوع بقدر ما تكون المسألة مرتبطة بغزارة الأحاسيس المتنوعة الهويات، والتي تتنافس في تفهم إشعاعاته الدلالية النابعة منه.

لقد رسم التفكير البلاغي العربي الإطار المعرفي الذي على القارئ أن يتمتّع به بما يوجب توفية المعنى حقه بتيقظه وتفطنه لما عليه تقلبهم في حاجاتهم، فهذا التحسب هو الكفيل بأن يحقق شروط الاستجلاء، أي الالتذاذ على لغة رولان بارط، والوعي الفني المنتج للخصائص البلاغية هو الناسق الذي يسهم بتنظيم الحراك الانفعالي والحسي من نشاط روحي إلى قيم تلفيظية ترقى إلى مستوى التّوقيع الأسلوبي.

يستمد البلاغيون العرب منهج الاستقصاء الدلالي القائم على المبالغة في البعد الاستعاري انطلاقا من التأطير الفلسفي الذي سعوا جاهدين إلى القبض على خصائصه الفنية، لذلك فقد بذلوا من التمحيص الفكري القدر الذي سعوا به إلى تجذّر المنابع الروحية التي تكتنف الدلالات الاستعارية، حتى أفضى بهم الاجتهاد في توصيف تلك الإحالات القوية التفهّم بقصد تشخيصه، رابطين إياه بتطوّع القوى الحسية في معرفة (... حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الأمور...)[43]، وقد تجاوب هذا المنظور مع ما يدعمه في توصيف ابن جني لمنهجه الذي ارتضاه في البحث اللغوي والقائم على (... إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحوالها في الأحناء والحواشي)[44]، ومثلما هو متسق من الرأيين السالفين، رأي الجاحظ ورأي ابن جنّي إذ هما من هما من الرسوخ في نظرية اللغة العربية، لم يُترك هذا التطوّع القرائي هكذا غُفْلا، بل أوكلوا إلى الفطنة القارئة المتفهمة لمقول القول شأن ترسيم المطارب الإغوائية المتوردة بين الناس،أي تلك التي هي محلّ إجماع قيمي، وخصوا بها صفوة من القراء المتفهمين المتسمين بالعلم والحكمة، واعتدال الأخلاط، وقوة المنة، والاعتداد بعدم الميلان مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكبر، أي بالانتصار للإبداع وليس الإجماع عليه دلالة على حرية قراءة الأثر الإبداعي وتحريره من سلطة التنميط والتنهيج المدرسي[45].

يتفق سياق الرؤية النقدية التي نعتمدها لمداخلة القراءة السيميائية لبلاغة الاستعارة مع ما قال به بيرس لدى الإعلان عن هواجسه التخمينية التي أنشأ عليها منهج التفكير السيميائي، حيث اعتدّ بعامل الفطن الحسية منطلقا لاستنهاض المهارة التداولية في هذا الميدان البحثي المتجذّر لأصول المعارف، خاصة وأن مجمل الإبداعات سواء كانت تقنية تطبيقية أم فنية عامة، تستند جميعها إلى عامل التفوق الخيالي الذي يتناتج خلال تلك الوظيفة الاستدلالية بمنهج التساؤل الديكارتي لاستيعاب

41 ينظر :G.Moulin, introduction a lasimiologie, Ed; minuit, Paris , 1970, pp94_104.

42 Pierce Ecrits sur le signe, Op, cit, 2-274, P_ 147.

43 الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1،ص: 66.

44 ابن جني، الخصائص، ج:1،ص: 32.

45 ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1،ص: 66.

المشاريع المعرفية الافتراضية عامة[46]. وهي المبادئ ذاتها التي يعول عليها كلّ شاعر لدى إقباله على تجريب الإنشاء بناء على هاجس ما، استجابةً إلى رؤية إبداعية ملحّة.

وكفيل بهذا الرأي النقدي أن يلهمنا دلالات نقدية محورية تتعلق بمجموع المهارات المعرفية التي توفرها مجموعة من الاهتمامات المعرفية والتي تشعلها في وعينا فاعلية القراءة الذائقة المقرة بوجود القراءات المتعددة الأخرى، بالإضافة إلى سهم حرية التأويل، والقراءة المبدعة، وإن من أبرز ثمار الإبداع الحقيقّي كامن في مدى تحريكه لتحصيل التفاضل التفهمي المتناهض على معاودة القراءات المتتالية لذات الموضوع المبدئي، ومهما تناءت بالإبداع اللغوي أسباب مرجعيته الاجتماعية فإنّ (... الكلام يعدّ رمزا للهوية الاجتماعية، فهو يعكس الخصائص الاجتماعية للمتحدّث أو المخاطب أو العلاقة بينهما...)[47].

ونظرا إلى تراسل المؤثرات الثلاثة: اللّسان والسّمع والقلب في توزين علاقة اللفظ والمعنى، فقد صار كل طرف من الاثنين المتشابهين قائدا لاستدعاء قيم الآخر منهما، كونهما يتماهيان ويتواشجان وظيفيا وإجرائيا إلى درجة التّدالّ المزجيّ المشترك بينهما، إلى درجة من التناجز المعرفي يصير معها جماع نشاط هذه العناية الفائقة، والحسية المركّزة، ولمّا كان هذا المسلك البلاغي الدقيق (... عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها، ومراميها أصلحوها ورتبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون لها ذلك أوقع في السمع، وأذهب لها في الدلالة على القصد...)[48]؛ لذلك فإنّ طرائق الدلالة وفق هذا المؤدى الثقافي يرتدّ ليكون بمثابة المنهج المعرفي الذي هو في حدّ ذاته منظور دلالي، يحتفظ وسط هذا الخليط من العوامل بمرجعيته الدلالية السامية، والتي هي باحتفاليتها الإنشائية تأخذ شكل البعد الفني المنتظر أبدا لدى القراء، وبالتالي فإن طرح إشكالية التناسب بين الدال والمدلول ستظل متشحة بالاعتباطية، لأن الدلالة البلاغية ستظل ضمن طقوسها الاستعارية متطلبة فطنة ووعيا فائقا قد يتجاوز المخطوط والملفوظ.

وتتواشج ثقافتا إنشاء القول، وقراءته متأديتين ضمن الحيز الفكري والروحي والانفعالي الواحد، حيث تتناغم جميع المعارف في منهج اكتشافها البديع، فالمعارف على اختلاف اختصاصتها الحياتية واقعة تحت سقف دلالي واحد، أساسه ترقية المعرفة الإنسانية، وحيازة الامتياز التواصلي، فالمنتجات التقنية التي غالبا ما نفصل نحن العرب بينها وبين المعارف الحسية الأخرى، تكذّب آثارها الواقعية سوء الاعتباط الذي نتشبث به في تحييد سياقاتها المتناغمة في الحياة الإنسانية الواقعية، وبناء على هذا التفهّم التطوّعي، فإن الإبداع الاستعاري سيظل بجموحه ونفوره الطبيعي منعتقا عن سلطة العقل التعليمي، حيث تجتمع الوسيلة اللغوية والغاية الدلالية ضمن المدرك الكوني الواحد، نعني أن التفوق الإبداعي يرتد شرطا لحصول التفوق القرائي، وأن أي إخلال في معادلة الملاءمة بين الإجراءين سيخل بشروط الإبداع، لذلك فإن الإحالات الهامشية المرافقة للإبداع الاستعاري ستظل تنهل من المرجعيات المعرفية الروحية التي تجد هي بدورها ما يعزّزها ويشدّ من أزر منهجها في معجمية اللغة العربية، حتى يفضي جميع آليات التداول إلى إعمال: التأمل القلبي لدى كل قراءة تأويلية لثقافة التصوير الاستعاري[49].

يتبارى كل من الملغز والفاكّ معا لبنية الدلالة الاستعارية بما يشبه لعبة شدّ الحبل بين قوتين، كلتاهما عاملة على إخضاع الطرف الآخر، وتحويله إلى الموقف الذي تقفه، فليست اللعبة متصلة بالحبل ولا بتفوق القوة بقدر ما هي مرتبة بشدة، حرص كل طرف إلى جلب الطرف

[46] ينظر: foz, ed. C.S. Pierce, .1 K, Paris, 1987, PP, Textes Fondamentaux De sémiotique traduction et notes .B. Fouchier-Axelsen et C

[47] جون هيدسون، الأنتروبولوجيا، ترجمة : محمود عياد، القاهرة عالم الكتب، 1989،ص: 188.

[48] ابن جني، الخصائص، ج: 1،ص: 216/215.

[49] ينظر، السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 87.

الأضعف الآخر إلى الموقف الأقوى، وهكذا فإن المستعير يتربص بالقارئ، ويريد الهيمنة المعرفية عليه، غير أن اللغز المعرفي الاستعاري لا تبطل جدواه بعدم وجود القارئ الساحر، بل إنّ السر كامن كله في قابلية الدلالة الاستعارية على تعدد الفهم والتفهّم، فالاستعارة التي افترعها امرؤ القيس ما تزال حية الجذوة الدلالية، لا تخبو نارها، ولا تتوارى قيمها التوقيعية، لأنها تنهض في وعي القارئ أكثر مما تنهض من لفظ الخطاب الذي احتضن مبدأها أول خَطْرَة.

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضّل[50]

تتداخل كل الدلالات المجازية، بناء على إجراء الإخفاء الذي يعدّ الشرط الأقوى في توقيع إطْرَافِها الدلالي الذي هو عماد بلاغتها، والاستعارة التي هي بمثابة ترقية النزوع التشبيهيّ، يمكنها أن تتواشج وظيفيا مع المجاز والكناية إذ كلها مستويات يتبطن بعضها البعض الآخر، ويتماهى إليه، وليس ذلك إلاّ لأنّ جميعها مما ينجع فيه التأويل والاستدلال، واللغة الفنية إذا غادرت مخطوطها وملفوظها المحقّق لوظيفيتها تبددت ضوابطها المعجمية والدلالية، وتلبست كلّ رأي، ووافقت كلّ انطباع تصادفه مهيأ في حسّ القارئ.

ولعلّ عيب الدرس البلاغي المتعلق ببلاغة الاستعارة كامن في كونه لا يتجاوز البنية الخطابية الجزئية، جملة أوجملتين، ومن ثمة فإن هذه المعيارية البنائية التي ظلت مرتبة بالجملة النحوية لم تستطع تحرير الحسّ الإبداعي من صعوبة التعامل مع الأفكار والمعاني المستفيضة بنيتها اللغوية على الجملة النحوية.

ونخطئ – نحن أهل هذا الزمان – كثيرا حين نعتقد أن الحياة العربية الجاهلية لم تصب من أسباب التنعم على نمط ما هو مسجل بقواه البلاغية في شعر امرئ القيس، فالإتراف والبحبوحة شركة بين أجيال كل الأزمان، لا يتخلف فيها قديم عن محدث، وبما أن الحضارة اللغوية لا تكاد تنفصل عن أوجه الحضارة الأخرى، فقد ألفينا أبا العباس المبرّد يقرّ بتساوي الأجيال على اختلاف أزمانها وبيئاتها في فضل الاهتداء إلى إصابة معينه البلاغيّ، ونحسب أن الإبداع الأدبي المتجليّ في النموذج البلاغي مشاكل لقيم الإبداع الفنّي الأخرى في مسارح الحياة الأخرى، ولكن يُعْطى كلّ ما يَسْتحقّ[51].

يستقي التفكير البلاغي الاستعاري طقوسه الدلالية انطلاقا من التركيز الروحي المفعمة به لغة الخطاب الأدبي الإمتاعي المحقق لغاية الابتداع، والمنشئون بإزاء هذه الاحتفالية اللغوية، يحررون الحسّ كفعل تكيّفيّ من كل قيود التحفظ العقلي التي تكبل طاقاته الإنشائية، لذلك أوكلوا كل التوقيعات الدلالية إلى النشاط الحسي الناظم للأساليب والدلالات، بحيث يغدو لقوة نشاطه الروحي معلما دالاّ على تراتبية العناصر اللغوية لسانيا وسماعيا، ومختلف التوازنات والانسجامات الناسجة للمتواليات الصوتية أو اللفظية، فالحسّ قمين، خلال ذلك إجراء التحسسّي، بتوفير أسباب التغلغل إلى أكوان عوالم العناصر اللغوية الدقيقة السحرية فتقاس ثمة الأصوات بمخارجها وأنغامها والمقاطع بأزمانها وكمها وتسلسلها في اللسان والسمع معا، ليستقرّ الذوق جراء ذلك التذوّق، بعد التغلغل في عوالمها التمعينية، على اعتبارات نظمية تتزن في أنماط أسلوبية هي شبيهة بالأوزان، أو المناويل[52]، إن زادت على الغاية أو نقصت تبينها الحسّ وتفطّن لها[53]، وليس بعيدا عن هذا المغزى أن نجد الضوابط اللغوية، والتمهّر في تجويد الأساليب الإنشائية ترتبط غاية الارتباط بما أسمته العرب مناقلة الكلام المشاكل لمناقلتهم الفرس، حتى يكون هذا التحسس المفرط كفيلا بذوق تعجيبات الأسلبة بحيث يلين كل

[50] امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس،شرح حسن السندوبي، ط:5، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ص: 116.

[51] ينظر، المبرّد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة المعارف، ص: 18.

[52] يثبت في الاعتقاد أن الوزن الشعري تطور من التوزين الأسلوبي إلى التوزين العروضي، حيث يكون قد استفاد من إيقاع التسجيع، والمنوال، ينظر، ابن خلدون المقدمة، ج: 2، ص: 1099.

[53] ينظر، أبو العلاء المعريّ، رسالة الغفران، تحقيق: علي شلق بيروت، ط:1 دار القلم، 1975، ص:92

عنصر فيها لسياسة البناء، والتشكيل الموكول إتقان ضوابطه إلى التقديرات الحسية العاملة على تركيب ما تآلف من العناصر اللغوية وتفادي ما تنافر منها، حيث يستدعي هذا السلوك اللغوي الدقة في إتقان إعمال الذائقة اللسانية والسماعية، ولقد ترسخ في الأعراف الأعرابية أنهم يعملون الرياضة الروحية القوية النشاط الحسّي فيلائموا بين إتقان بلاغة الكلام وبين الفروسية التي تشكل رصيدا اجتماعيا وثقافيا راسخا في الشخصية الأعرابية، حتى يستوي التفهمان: التّفهّم اللّغوي والتفهّم الفروسي في مصطلح وظيفي هو: تجويد المناقلات[54] بحيث ترتدّ كلتا الرياضتين إلى الاستجابة الفنية لمستمليات الحسّ المرتكزة هي بدورها على تقدير حساب الغريزة.

تتناغم السياقات الثقافية المؤطرة لفلسفة الاستعارة حتى تبلغ ذروتها لدى عبد القاهر الجرجاني في مقولة: معنى المعنى، قبل أن يحتفل بها المفكرون العرب لدى النقاد الغربيين، وقد سعى عبد القاهر الجرجاني إلى توضيحها وفق المنظور التالي: (... وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه من غير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر...)[55]، وإذا سمح لنا الإمام بالزيادة في فضل هذه الدلالة البلاغية الطريفة فإننا نقول: إن المعرج الدلالي الأول هو دلالة المطابقة التي هي الأصلية في كل استدلال توليدي للمعاني المستفادة من كلّ إيقاع استعاري، وأما ثانيتهما التي سماها معنى المعنى فذلك هو المعاني المتبطنة معان أخرى، وهي المنوط تفهّمها بذوي الفطن البلاغية القوية، بوصفها واقعة بخصوصيتها الإيقاعية في حيز التوصيفات المهارية، وإنما هي مدارج بعضها فوق بعض.

ومعنى هذا أن الفكرة تتّسع إلى أن تشمل كلّ ما يدخل تحتها من الدلالات، وكذلك نرى إلى موضوع تعلق كل العلوم اللغوية الحديثة المحققة في ضوء التفكير البلاغي ومنهجه، فإنها جميعها متضمنة في حقل البلاغة الواسع، وهذا السياق هو الذي عناه حازم القرطاجني[56] بقوله: (...ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلاّ بالعلم الكليّ في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع...) بحيث يلتقي الأداءان: أداء الحس، وأداء العقل في صياغة الموقف المعرفي المبلور لتفاعل القراءات جميعها.

والعلامة اللسانية التي هي مناط مختلف التخريجات الدلالية للمعاني الاستعارية، لا يمكن إتقان مفاهيمها المتداخلة إلاّ بإتقان إعمال الحسّ الفني القارئ بغية الوقوف على التذاذ مختلف التحديدات التي يجتهد النقاد في التنافس على استكشافها في كلّ إنجاز إنشائي جديد.

ويكون بناء على ما انتظمه سياق بحثنا لموضوع التقاطع الوظيفي بين فنّ البلاغة وبين علم السيميائية، أن جهات التناجز بين كلّ من الحسّ والعقل واضحة المعالم والآثار، حيث تستوجب منا القراءة التفهمية لوظفتيهما أن نراهما متساهمين لا متعاديين، لأن حقيقة الأمر قائمة على استضاءة كلّ طرف من الطرفين بوظيفة الآخر في تكميل المهام اللغوية، حيث يتناوب في مضمارها كلّ من الحسّ والعقل في إعطاء الأحكام بعد إعمال الذوق الحسيّ في كلّ مثير لغوي متميز تطلعه حماسة الإنشاء.

يمنح التفكير البلاغي جانب الحسّ من النشاط اللغوي الأهمية البالغة، حتى يصل بهذا الاعتماد مبلغ أن يكل كلّ صياغة فنية إلى وازع التقدير الحسي الكفيل بتوزين القوى البانية للعبارة اللغوية، ومثلما سلفت الإحالة إلى هذا الجانب من الوظيفة البلاغية، عملا بمبدأ التعديل والاستواء، حيث يضطلع الحسّ، بناءً على

---

[54] ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1،ص: 40.

[55] عبدالقاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، ص: 203.

[56] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت، ط: 2، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص: 227/226.

جاهزية إعمال قواه الغريزية في ذوق العناصر اللغوية وقياس أبعادها الصوتية السماعية، إلى جانب حساب أزمان الملفوظات، بحيث تتمّ هذه الوظيفة المعقدة الحساسة بصفة آلية يؤديها حساب الغريزة، ويمكن توكيد هذا التوجّه بتأمل مقولة أبي العلاء المعرّي في تعريفه الشعر تعريفا حسيا فارق فيه جميع التعريفات التي تحامت هذا المناط العزيز من الخصوصية الشعرية، حين قال:

ما كان التفكير البلاغي العربي أن يتّسق على هذا النهج الإبداعي، ويستوي على هذه القيم الفنية الجمالية نصا وفكرا لولا تسانده إلى تلك الإحالات الروحية التي أسعفته بروح التطوع في تطلّب الغايات التفهمية المعنوية القصوى، والتي نستوثق في تشخيص فلسفتها بمقولات الجاحظ أبي البلاغة العربية التي أمدّت التفكير البلاغي بسبل الكشف عن أواصر التراسل الحميميّ بين المنشئ والسامع، مبينة عن تلك الأبعاد الخارقة الناظمة لقواعد التواصل اللغوي، فلا يمكن للرسالة أن تحظى بالتفهمات والتأويلات والتخريجات إلاّ إذا توافى قلبا طرفي الخطاب، عبر تواصل ذبذبي روحي رباني، حيث يتساهم الاثنان المنشئ والمتلقي في إنجاز ظروف الإفهام والتفهّم البلاغي[57]، إذ هما بذلك التلاحم الروحي شريكان في الفضل، حيث يقودهما فضل التناتج الروحي إلى تجاوز الدلالة اللغوية التلقليدية إلى ما هو ألطف وأندر، وحتى وإن كان التفكير البلاغي يعطي الامتياز إلى المفهوم أي الباثّ والمنشئ، إلاّ أن التفكير البلاغي العربي تفطّن إلى تشخيص منتهى براعة الإرسال قائلا بالقلبية، ومختلف الفطن والنشاطات الروحية التي يجدر بالخطاب أن يُقْرأ في ضوء مجمل تفاعلاتها المعرفية.

ويكون جديرا بالتراسل القلبي المنتج لحميمية التواصل المعرفي بين المنشئ والمتلقي أن ينتظم طبيعة التواصل الإمتاعي بين طرفي الخطاب أن يتوافى طرفا الخطاب، فيكون أحدهما أكثر استعدادا للتفهّم عن الآخر، بناءً على التواطؤ الروحي بين قلبي المتراسلين، المنشئ والسامع، ولقد ترسخ في الأعراف العربية أن ثمة معالم بلاغية هي بمثابة الموثبات الاستعارية رسمت سقف التأوّج التمثيلي لبعض القيم الاجتماعية، من مثل: كثير الرماد، طويل النجاد، نؤوم الضحى، حتى امتازت بمحورية مرجعيتها الثقافية، انبنى مدلولها الفني على قناعات استمدها الحس الفني من قناعات اجتماعية واقعية.

لقد أدى الاعتبار بهذا المنهج الإبداعي الحرّ إلى جملة من التعزيزات الفكرية، ساندت هذا السعي إلى تحرير الانطباع الفني من الهيمنة العقلية، نعزّز لهذا التوجه برأيين نقديين: الأول منهما للجاحظ[58] قال فيه بتحرير القوى المنشئة للبلاغات، (... فما هو إلاّ أن يصرف وهمه جهة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال الألفاظ انثيالا...)، والثاني من ذينك الشاهدين على مذهب العرب في تحرير القوى المنشئة للبلاغات هو لعبد القاهر الجرجاني القائل: (ولن تجد أيمن طائرا، وأحسن أولا وآخرا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس من الأفكار إلاّ ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلاّ ما يزينها...)[59]، حتى تصب فائدة توجيه الإبداعي في ضرورة تجنب الاستكراه في مجاذبة أسباب إنشاء القول الروحية والحسية معا.

إن الثراء الدلالي والنشاط التعجيبي اللذين تتمتع بهما الاستعارة كفيلان بأن يمنحا الأساليب التعبيرية متسعا في التجريب البنائي، خاصة عندما يتخلى التركيب النحوي عن التزامه التراتبي المحيل إلى الدلالات الأصلية؛ أي دلالة المطابقة. والذي يتأمّل فلسفة اللغة العربية يستطيع أن يقف على حقيقة كون المجاز

[57] ينظر، الجاحظ البيان والتبيين، ج: 1، ص: 11.

[58] نفسه، ج:1،ص: 50.

[59] عبدالقاهر الجرجاني، أرسار البلاغة في علم البيان، ص: 10.

بتبعيداته التمعينية إنما هو يفيد التوكيد، وقس على ذلك الدّلالات الاستعارية، فكأن التوقيعات القلبية للمعاني تجعلها تحلّ المحلّ الأوثق من الاعتقاد، لذلك واستجابة لهذا التوجّه الفلسفي فقد أعطي القلب دلالات الوثوق بوصفه المرجعية الإنسانية الأكثر ثباتا على المبدأ الفطري لأنه (... محل المعتقدات فلا يجوز أن يجتمع فيه الشيء وضدّه...)[60].

إن التركح في مجاذبة إبداع البلاغات مرتبط برياضة الفكر، واعتماد الاستئناس في مجاذبة مختلف التوقيعات البلاغية عن طريق الانطباع الفطري بالأساليب التعبيرية، ويكون ذلك بتحقيق خصوصية التميّز والفرادة التي تحفظ للاستجداد اللغوي هويته الإبداعية، وخصوصيته البلاغية بين مختلف التجارب الأدبية المتعايشة، لذلك فإن ثمة سياقات معرفية لا تقوى القاعدة اللغوية على تسميتها إنها متممات البلاغة[61]، وهي مناطات انفعالية لا يستطيع استلهام طاقاتها اللغوية إلاّ من أوتي سلامة الطبع، لأنه بفضل تلك الفطرة يستطيع الاستغناء عن معرفة قواعد القياس[62]، والقول بنحوية اللغة لا تمنعها من أن تتماهى وهي في حيز النحوية إلى مستويات دلالية هي فوق النحو، نستطيع استشفاف هذه الفائدة من الدلالات النحوية المؤثرة في المبنى، وأخرى تلك التي تكتفي بالتأثير في المبنى فلا تتعدّاها إلى الأثر الإعرابي، فهي لذلك حاملة صورة النحو، وليس بالنحو في شيء[63]، فالذي توافر من الشعراء على هذه اللياقة استغنى عن الاستعانة بعلم الأدب لدى إبداعه الشعر، ومن هنا يبدو لنا جليا مدى التلاحم الوظيفي بين البلاغة في أوج تجلياتها الإبداعية، وبين الخصوصيات الإبداعية التي تجعل من العينة اللغوية امتيازا فنيا وجماليا.

هكذا تتوافى الدلالتان، دلالة العناصر اللغوية الصّغرى: أصواتا ومقاطع وهيئات ألفاظ، أي أوزان صرفية، ودلالة المعاني التي يستطيع الوعي المعرفي المساهمة في تحديدها نظرا إلى كونها قابلة للتشخيص أكثر من غيرها من العلامات اللغوية الدالة.

ويتّسق الاعتداد بتلك الوظائف والإجراءات التي أشرنا إليها مع منهج استدعاء الشاهد البلاغيّ التراثي، بالرغم من كون كل التفريعات الدلالية التي توالت تناهضاتها التبيينية في ضوء تأثير الدرس البلاغي والتي سعت جميعها إلى تكريس النمذجة المطلقة، وإنما هي تفريعات إجرائية أملاها التشبع بمعارف العصر الطارئة التي حاولت مغادرة المكرّس، وكذلك شأن البلاغة العربية في مفاهيمها التقليدية بعلم السيميائية الطارئ على سيرورة تحولاتها، إذ هما: البلاغة والسيميائية علمان مشحونان بالفنيات في تساوق متكامل، إلى درجة من التناغم والتدال يستطيع الواحد منهما أن يستضيء بمعارف الآخر، إلى أن يتوطّد انزياح البلاغة إلى هذا العلم المستجدّ في مضماره إلى درجة تضحى خلالها السيميائية هوامش تحليلية وتأملية للقضايا البلاغية التي تحامت المناهج اللغوية الحديثة مقاربة تشخيصها، كاللّسانيات والصوتيات، والبنائية وما جرى مجراها.

ويكون من المفيد جدا، التنبيه إلى أن اعتماد المعرفة الحسية في كل نشاط لغوي بلاغي كان قد أثمر اتساعا في المعرفة الأدبية وتطورا، ففي إطار هذا الاستيعاب الحسي للغة، ظل راسخا أن علم العروض، المتمتع بالأصول الإيقاعية ظل يدرجه البلاغيون ضمن المعرفة البلاغية، تؤكّد معظم الكتب البلاغية الهوية الإبداعية، والتي تترجم الأصول الشعرية، فالتلاحم الوظيفي بين مفهومي البلاغة والشعر يحملنا على إقرار كون الشعر بلاغيا أسبق من القصيدة، لأن مفهوم القصيدة ظل مرتبطا بشرط الوزن، خلافا لما هو عليه اليوم من الاستقلال عن ذلك المنبت اللياقي الحرّ، ندعم هذا الكشف عن تناغم الأصول البلاغية بالنشاط الشعري الحرّ في أوليات الخطاب البلاغي العربي ببرهان إدراج السكاكي

60 ينظر، الآمدي، الموازنة، ص: 223.
61 ينظر، السكاكي، مفتاح العلوم، ص:138.
62 ينظر، ابن طباطبا عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، الأسكندرية، منشأة المعارف، ص: 41.
63 ينظر، السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 138.

في مفتاح العلوم لعلم الاستدلال[64] ضمن فروع المعرفة البلاغية، وهو العلم الذي نراه يتلاءم كثيرا مع مكونات الدّرس السيميائي اليوم كونه مدرجا ضمن بلاغة كيفية نظم الدليل[65].

إن تركّز الدرس السيميائي على مراعاة الكيفيات المنتظمة لأدوات الاستدلال[66]، حيث يتمّ توجيه أفكارنا نحو سياق معرفي أو فعل حياتي ما، نستعين به من الخارج في القراءة الإسقاطية، فيحدث ذلك التناجز بين اللغة باعتباراتها الصوتية والزمنية وبين صورها الدلالية المستفادة من واقع الحياة، وكذلك فإنه في الإمكان ملاحظة تلك الإحالات الدلالية التي تستفيدها البلاغة من حياة الأعراب الأولين الذين تنسب إليهم الكثير من النكات الدلالية المتفوقة على غيرها من مناسبات الخطاب البلاغي العربيّ.

يتسق التوقيع الاستعاري للمعاني والدلالات مع الاعتبارات اللغوية الفنية الأخرى، وليس ذلك إلاّ لكون فنّ الاستعارة الأرسخ بين المؤثرات البلاغية الأخرى باعتبار أصولها الحسية، ثمّ لكونها مستوحاة من حقيقة الانفعال الحسي الفطري بقيم الحياة، ولا يعدم مستقرئها أن يلفيها حاضرة في جميع الآداب والألسنة واللهجات فاعلة في تصورات المجتمعات ومعتقداتهم، ولو جئنا إلى المفاضلة بينها وبين علمي الصوتيات واللسانيات، وبين علمي النحو والتصريف، لصادفناها الأنجع في الاستعمالات التواصلية، والأقوى حضورا في تلبية المقاصد الانزياحية التي يتحرونها، ترقية للخطاب، والاستعارة لشدة وظيفيتها، وتمكنها من تلبية التواصل الاجتماعي الخاصّ على اختلاف البيئات والمجتمعات، فإنها بفضل تلك الحاجة الإنسانية إليها تهيمن على أساليب الاستعمال اللغوي المختلفة، فالإنسان شغوف باستعمال الانحرافات الدلالية سواء أكان ذلك حاصلا عن قصد أو غير قصد، ولا مبرّر يقف وراء تفضيل الدلالة الاستعارية إلاّ لكونها – في نظرنا – أكثر تلاؤما مع متطلبات التنويع في كيفيات إيراد المعاني.

يمكن اعتماد التفكير البلاغي الاستعاري على أنه كفيل بأن يعكس النزوع الحسي البدائي، وقد استوعب منشؤه كل الملابسات الحسية والعاطفية التي اطلعت الأساليب التعبيرية الاستعارية الأولية، ونظرا إلى تمنهج الإبداع البلاغي الاستعاري وفق المقدرات الانفعالية الراسخة في الطبيعة والعرف فقد سعى ابن المعتزّ إلى توثيق هذه المرجعية الانفعالية، حين قال بقدمة فن البديع وتغلغله في التجارب الإنشائية العربية القديمة، لذلك احتاشت نظرية البديع لدى ابن المعتزّ بسعة الرؤية، وفسحة التفكير حتى طالت بلاغة الإنشاد، من حيث هي كيفيات دلالية تسمو على أيقونة اللفظ اللغويّ[67]، ومن ذا الذي يجرؤ اليوم على هرية التهدي هذه التي تمتع بها النزوع البلاغي الأوليّ؟

إن اعتماد الوسيط اللغوي بين فعلي الإرسال والتلقي لا تعفي الوعي من الاستنجاد بعلامات الواقع ورموزه الدالة، حتى كأن اللغة في حدّ ذاتها بتحقّق اعتمادها للواقع تؤكّد في ذاتها هوية انبثاقها؛ لأن في العرف البلاغي إقرارا بشيوع الاعتبار بالدلالة الإسقاطية النابعة من أكوان الأشياء، (... فالدلالة التي في الموات من الجماد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة...)[68]، ومثلما هو بادٍ فإن الاستعارة تعتمد نفس آلية التشخص التي تأتي عرضية غير مرتبطة بمقصدية عقلية معينة، وهي إذ تطرأ على الوعي كذلك فإنها في نظرنا تظلّ متواشجة مع كثير من النشاطات الحسية الدالة بعفويتها، ولعلّ هذا الوازع هو الذي أنضج في فكر الجاحظ قوله بدلالة النصبة التي بقوة نشاطها تستغرق كلّ شيء[69]، وإذا كان هذا شأن استنباط المعاني، والاجتهاد في استرواحها من معادن الأشياء، فما بالنا بالمعاني التي يسهل

---

[64] ينظر، نفسه، ص:183.
[65] ينظر، نفسه، ص: 183.
[66] ينظر، روبرت شولتز، السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، ص:48.
[67] ينظر، ابن المعتزّ، كتاب البديع، ص: 14/ 16.
[68] ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 59.
[69] ينظر، نفسه، ج: 59.

اللفظ أسباب توسمها؛ لذلك فاللغة بناء على هذه الاستفاضة الفلسفية الشاملة تستفيض حتى تصيب آثارها كلّ شيء فلا يبقى من الحياة شيء إلاّ وهو ناطق بدلالة الهيئة المستفادة من تأمله، والعمل الأدبي، وفاق هذا المؤدى، لا تنهض قيمه الدلالية إلاّ بناء على قوة تشبع الحسّ بمعطيات الواقع، يقوى هذا التدال بين كون الشيء ومختلف الفطن البلاغية المتمتع بها الحس القارئ، حتى تفضي جميع تلك التلازمات الوظيفية إلى التشارك أو التساهم بين اللغة في صورتها اللفظية التمثيلية المُسَمِّيَة للواقع وبين حراك مخزونها المعجمي الدلالي، وإن فهم الخطاب لا يستطيع أن يَنْبَتَّ عن أريج التربة التي أطلعته إلى الوجود فيتلوَّن بها.

يمكن تفهّم المكونات الدلالية لسيميائية الاستعارة في الفكر البلاغي العربي على أنها عبارة عن تلك الطاقة الروحية التي تغلف كلّ إجراء تعبيريّ، فالنحوية أو المعجمية أو الأسلوبية لا تستطيع أن تنفصل عن تلك المؤثرات الخفية السحرية التي ترافق كلّ قراءة، وهي التي عادة ما تتفاوت التسميات في القبض عليها فمرة يسمونها بالوعي وأخرى بالفطنة وأخرى بالإبداع والابتكار، وهي في جميع تلك الأحوال لا تخلو من أن تتصف بتلك القوى الروحية الخارقة الشبيهة بالجهد الباهر الذي نترقبه لدى حرصنا على تتبع الكيفيات التي تتموه بها حركات أيدي السحرة.

تستتعين الدلالة الاستعارية بمكونات تمعينية تقع خارج إطار اللفظ، لأن المتعاطي للمعاني الاستعارية مستوجب عليه التمرّن الذهني على حمل قضيتين معا ذهنيا هما المشبه والمشبه به، يضاف إلى هذه التقنية لعبة الإخفاء والحذف نتيجة لتغييب أحد طرفي التشبيه، المشبه أو المشبه به، وهو النسق الدلالي الذي بموجبه تكون الاستعارة إما تصريحية أو مكنية.

ولْنَنْخرط الآن في مجاذبة أسباب حصول الالتذاذ اللغويّ المترتب على اعتماد إجراء الإخفاء الدلالي، وما يستتبعه هذا السلوك المعرفي الخاصّ من تعجيب النفس في أثر تقدير أوجه الدلالة المستفادة بعد فكّ شفرات الإلغاز والتعمية والإغماض، ويستعان في ذلك إجرائيا باعتماد المحيلات العرفية والتأويلات المناسبة أي التي لا تفرط في إتقان أدوات الاستقراء الدلالي[70].

لقد ظلت دلالة الاستعارة البلاغية تمثل درجة قصوى من المغايرة للمألوف العادي من التعبير أكثر من دلالتها على بنية لغوية بعينها، لذلك وبالرغم من أن الانتظام النحوي لبنية الاستعارة شرط أساسي لقبول الصيغة التعبيرية الاستعارية نلاحظ أن التجاوز الدلالي الذي يتضمنه الامتياز الدلالي لبنية الاستعارة ظلّ يملي علة الانتظام النحوي المعياري كيفيات انتظامية ظلت تخلخل علامات الإعراب، وتنقلها من حيّز الوضوح إلى القراءة التقديرية.

لذلك تبدو الاستعارة بمثابة المخلص للذّات الإنسانية من ضيق الإجراءات التعبيرية العادية بما يفتح للذات الإنسانية مجالا للتسامي، وإن تضايق الإنسان بمحدودية اللفظ يجعله يلجأ إلى تلك الإحالات الانزياحية التي تنقله من ضيق اللفظ وتناهيه إلى سعة المعنى وأساليب التفنّن في تحقيقه، وليس تماهي المعاني إلى العوالم الروحية اللاّمتناهية إلا تأكيدا لروحانية الوسيلة اللغوية وسحريتها؛ لذلك لم يفت البلاغون العرب أن يروا لغتهم الجميلة متواشجة مع الطقوس السحرية التي تكتنفها البيئة الأعرابية، فقرنوها بالقيافة والكهانة، وإن جودة القراءة والتأوّل مرتبطة بالاستدلال البلاغي حذو النعل بالنّعل، والاستعارة بحلولها هذا الموقع من أصول طبيعة التواصل الإنساني في البيئة الأعرابية التي أطلعت الخصوصية البلاغية العربية، قويت على ان تلبي في الإنسان الكثير من المطالب الانفعالية والغايات الفنية الجمالية، حتى كأن منطقه ملزم باعتمادها فلا يستطيع أن يعرى منها البتّة.

---

[70] ينظر، السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 158.

يلتقط المكون الدلالي قيم التبديل المعجمي الناظم لتشعبات الدلالة الاستعارية من خلال الارتداد القيمي للموضوع المعبر عنه، والذي يمكن استكشافه من خلال اعتماد كورتاس، وغريماس لمصطلح isotopie حيث تتناغم الدلالتان العامة والخاصة[71]، وهو ما يصطلح عليه في البلاغة العربية بالمشترك والخاص، أين يتمّ الانتصار لتحكيم الذّوق الخاصّ بالمنشئ في تقدير الأساليب والمعاني.

وتعتبر بلاغة الاستعارة المحرض الأقوى على النشاط اللغوي المتصل بقوانين الصوت اللغوي، أو النظام التركيبي للجملة اللغوية النحوية والذي غالبا ما يتحقّق استجابة للرغبة الجامحة في تحقيق الامتياز الأدبي الذي يعني بالضرورة التفوق الأدبي، لا لشيء إلاّ لكون الحسّ بكل توابعه الفطنية هو الذي يسيطر على الإجراء التواصلي بين عامة الناسّ، فما بالنا بالإجراء التواصلي الفني الخاصّ، ونعتقد أن لهذه العواطف المصاحبة للنشاط اللغوي الامتيازيّ، والتي ما فتئ البلاغيون العرب يشيرون إليها من حين لآخر، هي بمثابة العامل الأسلوبي الموجّه للمعاني، والمولد لخصوصيات الدلاليّ، فليس (..العمل على نية المتكلم، وإنما العمل على توجيه معاني ألفاظه..)[72]، لذلك تَرَى المنشئ يحتاط حسيا لتوجيه المعاني فيطبع أساليبها بالكيفيات التوقيعية التي تعين المتلقي على مقاربة أرواح المعاني التي يتضمنها الخطاب الأدبي الفنيّ، فالحلقة الافتراضية الرابطة بين طرفي الخطاب تتضمن مبدئيا ضربا من التراسل الروحي الذي تحفظ لسيرورة الخطاب مجالها الحيويّ بين المتخاطبين.

ذلك وأنّ الابتداع على المبدأ والأولية أعوص من الاستمرار على النسق الفني المكرور، وإذا كان السلوك الشعريّ (..اتّفق في الأصل غير مقصود إليه، على ما يعرض من أصناف النظام في تضاعيف الكلام، ثمّ لما استحسنوه، واستطابوه ورأوا أنّه تألفه الأسماع، وتقبله النفوس، تتّبعوه من بعد وتعلّموه...)[73]، فإن الابتداع الاستعاري تعتمد في بعض مسالكه الفنية السياق التراكمي لتوزينات أسلوبية بعينها، من مثل الوقوف على الأطلال، والبكاء على الديار، واستيقاف الصحب، كلها غايات دلالية بدأت بالفردية ثم صارت معلما فنيا شركة بين الشعراء؛ لذلك يمكن النظر إلى القيم الدلالية باعتبار وجوديها الموضوعي والذاتي معا، وإن قابلية تحامي الدلالة وتهذيبها وتطويرها مركوز في نسغ اللغة ذاتها[74]، وقد قارب البلاغيون العرب تلك الجهات المضطلعة بتوجيه المعنى[75]، وأحالوا إليها في كثير من شروحهم اللغوية.

تتجلى قوة بلاغة القول، من خلال حصول التحول من حيز الروحانية إلى حيز التشخّص اللفظيّ، حيث يتعلق جميع ذلك النشاط التحويلي بمدى تحمل عضو الكبد من الجسمانية لطاقة معاناة المعنى ومكابدته المصروفة في ذلك النشاط الذي بموجب كلفته العضوية تتحدّد قيم الانسجام والملاءمة بين اللفظ والمعنى، وكذلك رأى الدارسون أن الخصوصية التوقيعية للدلالات والمعاني موصول تحقيقها بحرارة الاعتمالات الروحية التي ينبغي للمنشئ والمتلقّي توافرهما عليها، ثمّ إن العارفين بأحوال الدّلالة الاستعارية التي هي أم المعرفة البلاغية يشترطون استيفاء العوامل والمؤثرات البانية لأوجه الدلالة البلاغية بكل ما تتضمنه أو تنزاح إليه، لا ينفكّون يصلون تلك الفاعلية من النشاطين: الجسماني والروحي في الآن الواحد بالتحرّز من كون اللسان قد يخالف بقوة نشاطة وغريزيته المفرطة في الحركية والذبذبة، مستمليات القلب، وهي التي تنبني على المفاجأة والمباغتة والانقضاض، والبلاغيون تبعا لذلك يرون أن اللسان يكذب من شدّة قابليته للتّخرّص اللفظيّ، والتلوّن الصوتي، فالقلب لا يتضمّن إلاّ الحقيقة[76]، ولننظر بعد هذا إذا كانت

[71] Greimas. Courtes; O.p; P197.

[72] الآمدي ن الموازنة، ص: 159.

[73] الباقلاني، أبو بكر، إعجاز القرآن، ص: 63.

[74] ينظر، نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة ن آليات التأويل، الدار البيضاء المغرب، المركز الثقافي المغربي، ط:4 1996،ص: 21/20.

[75] ينظر، الآمدي، الموازنة، ص: 159.

[76] ينظر، نفسه، ص: 223.

فلسفة لغوية تزيد على هذا الرأي وتعلو عليه إذا ما قورن هذا التفكير بالتجارب الإنسانية في هذا المضمار.

تستعين اللغة، في حيز التعاطي الاستعاري، بجملة من الأبعاد والضوابط الإجرائية التي تحيلنا لدى تأمل نشاطها الدلالي إلى الجوانب المكملة للغة الصوت، إلى درجة من الوثوق بذلك التكامل الدلالي، يصير التلازم بين دلالة الصوت اللغوي ودلالة النحو منبنيا على استملاءات حسية تتناتج فيما بينها، لذلك تظلّ للّغة أصداؤها المائلة لتلك الهوية المتوارية من الإجراء الدلالي الذي عادة ما نقتصر في التعويل عليه، والمتمثل في ملفوظ الخطاب، يتجسد الجهد الاستيفائي للّغة من خلال الإحالات الروحية والانفعالية والحسية المرافقة للدلالات الظاهرة بدءا من أيقونة الخطاب الكلية إلى العناصر اللغوية المتناهية في التخفي والضّمور.

وإذا كانت الدلالة الاستعارية قائمة على ضبط التلازم الدلالي بين قيمتين متباينتين هما: المشبه المعزّز سياقه البلاغي الاستعاري بالمرتكزات السياقية العاملة على نقل سمات دلالية تكسبه القوة بعد الضعف، والانتقال القيمي إلحاقا له بسموّ دلالة المشبه به، وهذا الأسلوب البنائي الخاصّ بنظم لغة الاستعارة يمكنه أن يرقى إلى الوظيفة الوزنية لأنه محسوب الكيفيات والوضعيات، بحيث يرتدّ كلّ إخلال بتراتبية العناصر الدلالية مفسدا في الوظيفة الدلالية اختصاص نشاطها المجازي، وهذه الخاصية هي التي تجعلنا نقول بمشاكلة هذا الجانب الوظيفي في موضوع الاستعارة بما يسميه السيميائيون الوظائف الكبرى والوظائف الصغرى حسبما أشار إليه تشومسكي حين شرح آلية الترابط بين الموضوع: sujet والمحمول: Predicat، حين تتناجز جميع الأدوات الدلالية خدمة لبنية الخطاب العميقة: Stricture Profonde، وقد اشترط تشومسكي توافر بنية الخطاب المركبة كالجملة النحوية أو ما فوقها، من التفاضلات العطفية، والتوكيدات [77]، ونلاحظ أن المناط ذاته هو الذي شرحه ابن جني حين ركز على وظيفة الجملة دلاليا، فالدلالة البلاغية أكثر ما تتجع، وتحصل أسباب الإمتاع فيها (..ومعلوم أن الكلمة الواحدة لا تشجو، ولا تحزن، ولا تتملك قلب السامع، وإنما ذلك فيما طال من الكلام وأمتع سامعيه، بعذوبة مستمَعِه، ورقّة حواشيه..)[78].

ولا يحصل ذلك في العرف البلاغي العربي إلاّ بعد سماح الآلية اللغوية التركيبية بحصول ذلك، فالمسوغ الذي تفرزه القاعدة البلاغية، وبناء على المرتكزات البنائية المضبوطة تخول للإجراء البلاغي الاستعاري بممارسة الإجراء، بعد مراعاة الشروط البنائية المشروطة في ذلك، والتي من أهمها البناء التشبيهيّ على مسوّغ التلازم التناسبي بين المشبه الذي هو الأدنى في المعادلة البيانية، وبين المشبه به المتمتع دلاليا بصفة العلو والتفوّق، فإنّ مراعاة تراتبية الاختلاف، والتكامل بين ركني التشبيه هي التي تحدّد قوة الهزة النفسية التي تخلخل حسّ القارئ، حيث لابدّ من توافر أسباب الامتزاج والتباين في ذات الوقت بين قيمة الشيئين المشتركين دلاليا، وكلما استطاع الأسلوب البلاغي إتقان وظيفتي الإخفاء والإبانة من خلال ضبط الأدوات اللغوية العاملة على ذلك كلما حصل التعجيب.

وإذاً، فإن ارتسام الدلالة في آفاق الوعي ليست بالضرورة مرتبطة بالنظام النحوي للّغة بقدر ما هي مرتبطة بكيفيات الإخفاء الدالة هي في حدّ ذاتها على طبيعة تواصلية، خاصة حين يتعلق الأمر بتبادل الوظائف الدلالية بين متلازمين لغويين هما: المكون الدلالي الناقص، والمكوّن الدلالي التامّ، ومثلما هو بادٍ فإن الدلالة الاستعارية تتبنى في عمق وظيفتها البلاغية التأطير المتقن لصورة معنوية مركبة، فهي لا تستطيع استيعاب القيمة المفردة، وإذا تعلق

[77] ينظر: A.Van Dijk, Aspects D'une théoris Generative Ed- Du texte Poétique, Essais de sémiotiqe Poétique. Larousse, P188

[78] ابن جني، الخصائص، ج: 1،ص: 27.

الإجراء التوصيفيّ بالمكون الدلالي الواحد، يوظّف كل المعطيات القابلة للملاحظة الحسية، فإنّ الدلالة الاستعارة في مركوز طبيعتها الدلالية لا تستطيع استيعاب ذوات الواحد، ولا ذوات الثلاثة، لأنّ ما هو كذلك لا يقوى الحس التقديري على التعامل معه، وقد اجتهد علماء السيميائية جميعهم – أولهم وآخرهم – في إبراز القوانين المتحكمة في نظم العلامة بحيث يتأدى (... التأويل الاستعاري في حدود اعتماده علة الأمثلة النموذجية وصفية وعامة، لا يكشف عن وجود مماثلة بين المعاني وإنما يسعى إلى بنائها...)[79]، وللبنية الثنائية رسوخ في العرف الدلالي العربي، منها ثنائية تشطير البيت الشعريّ، واحتمال المخاطبة على التثنية لدى استيقاف الصحب في مطالع القصائد القديمة: **قفا نبك... عوجوا... عوجا،** ويبدو أن للبنية الأسلوبية التشبيهية أصولها البيئية، والاجتماعية التي لا تكاد من شدّة الملاءمة تغادرها[80].

لقد كان جديرا بهذا التوجيه المنهجي النابع من صميم الأعراف، الطالع في أصل التفكير البلاغي العربي أن يهدي إلى القول باعتماد الدلالات الظنية عندما يتعلق الأمر بتفهّم المعاني المجازية التطريبية، ففي حيز التعاطي الجمالي فقط يمكن إئتمان الدلالة الظنّية أو الشكية[81] على كونها غير إثمية، وهي المناسبة التي يُتَنَهَّجُ لدى تركيح الفكر فيها على أنها المبدأ السيميائي القارئ لكل من المنطوق اللغوي بمعزل عن المفهوم الدلالي[82] بالذات والصّفات، والسيميائية بحكم تعلقها بمنهج الإيضاح الدلالي المتفاضل عن المبادئ الأولى للتفكير البلاغي فإنّها، لذلك، متضمنة حتما ضمن المخزون المعرفي للبلاغة العربية دون أن يكون هذا الادعاء تمحّكا أو تمحُّلا.

ولو جئنا على تمحيص علاقة الاستعارة بالشعرية موردين عبارتين اثنتين هما:

صياح الباعة في سوق البصرة: من يشتري باذنجان، والأخرى التي انطبع عفويا بهاجسها عبدالرحمن بن حسان بن ثابت: لسعني طائر، لكانت الأولى ألحق بالدرك الأسفل من البلاغة، ولو نزل الخطاب إلى ما دونها التحق بأصوات الحيوانات، وأما الثانية التي تفجرت بلاغتها بالاستعارات البعيدة فهي أقرب إلى الشعر منها على النثر تبعا للزخم التخييلي الذي شحنت به عبارتها، وليس الوزن أو المعايير الشكلية الأخرى مقدمة شيئا، أو مؤخرة من الامتياز الفني أو من عدمه في الأسلوبين التعبيريين المستشهد بهما على حرارة النكتة من برودتها.

لقد أغنى البلاغيون العرب، مسارب التماس الوظيفة الاستعارية للّغة، بتقوية الآصرة بين طرفي الخطاب، ناظرين إليها على أنها كفيلة ببثّ أسباب الفهم والتفهّم، والذي هو منهج تنجع في مضاميره الدلالات البلاغية، لذلك قال الجاحظ[83] (... كما أنّ النادرة الباردة جدّا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدّا...)، يثبت هذا الاعتماد النظري في حقيقة هذا المناط الإمتاعي والذي سيشكّل دعامة إجرائية يستفيدها عبدالقاهر الجرجاني لدى كلامه على تفوّق ذهن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت في التبعيد الإغرابي لدى توصيفه قصة لسعة الزنبور له، فقد تبناها عبد القاهر الجرجاني محكى خطابيا لتبيين مبنى بلاغة التشعير المجازي للغة، حيث ينصب التمهّر السيميائي في إحاطة التوصيف بتصوير الهيئة المخصوصة لصورة التماثل الكوني بين هيئة الزنبور والالتفاف في بردة الحبرة الذي هو موضة لباس وحياكة ونسيج يجتبى إبانها من حضارة اليمن[84].

يؤدّي استغراق الدلالة الذي يعرف على أنه: (... شمول أمر لمتعدّد، سواء أكان الأمر لفظا، أو غيره...)[85] أو تناصفها وظيفة توازنية بين

[79] U. Eco. Les limites de l'interpretation, trad.M. Bouzaher, Paris, Ed, Gassetet fasquelle, 1992, P.150.

[80] ينظر، الشوكاني، إرشاد الفحول، ص: 38.

[81] ينظر، نفسه،ص: 4.

[82] ينظر، نفسه،ص: 156.

[83] البيان والتبيين، ج: 1، ص: 81.

[84] ينظر: عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 167.

[85] الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول، ص: 98.

المحسوس والمعقول لدى تقييم الدلالة، تلطّف من سهمي كلّ من العقل والحسّ في رسم أيقونة المعنى، من حيث أهمية هذا الانتظام في تأهيل القارئ واستدعائه إلى المساهمة في التجسيد عن طريق التصرّف؛ أي التحويل الإضافي الخارج عن إطار اللفظ وصولا إلى إقحام العلامة الخاصة المستقلة عن المجسدات الدلالية الأخرى الأكثر تشخّصا، ويتنامى هذا السياق الوظيفي في حيز التمعين البلاغي المستعين بكل دالّ متضمنا فائدة الدلالة النوعية الراقية إلى أن تكون مستنبطة من (...كل خاصية يمكن تأملها بوصفها وحدة مجردة عن تواراداتها الخاصّة، فهي عامة ومعقّدة تقبل الإنتاج الفوري، والمتكررة غامضة، ومتداخلة لا يمكن تحديدها، ولا إحصاؤها...)[86]، وبحسب هذا التنهيج المعرفي الراسخ في التفكير البلاغي العربي، تنزع سيميائية التعجيب البلاغي الذي هو شعبة من شعب التوقيعات البلاغية إلى التعلق بكلّ موضوع أدبي تنجع فيه الإسقاطات النفسية والاجتماعية والبيئية مضافا إليها التقاليد الدلالية المحفوظة لمعجمية الموضوع المتداول المعرّض للتنويعات التوصيفية لدى تداول الأدباء له، إلاّ أن عنترة الشاعر العبسي يكون بتشعيره سذاجة موضوع الذباب قبل سارتر منذ الأزل قد أصاب توظيف النكتة الباردة جدّا، فوقع بها بلاغة الإطراف مخالفا إجماع العامة والجمهور الأسود في اعتماد المرتكزات الموضوعية البارزة، ذات الصيت الذي يظنّ به أنه وحده الكفيل بتحقيق الإمتاعية، فالذّباب الذي عادة ما ينفر منه الطّبع، وتستسمجه الأذواق حين قال[87] (الكامل التامّ):

فترى الذباب بها يغنّي...
هـزِجًا كفِعْلِ الشاربِ المُترنّم
غرِدًا يسنّ ذراعه بذِراعه
فعْل المُكِبِّ على الزّناد الأجْذم

وما من علم لغة، حسب استقرائنا لمختلف القراءات السيميائية للأثر اللغوي البلاغي، اختلط بالفنّ، وتأصّلت طقوسه الروحية، متجذّرا حقيقة الفطرة الإنسانية مثلما تجذره فنّ التوقيع الاستعاري، والتفكير الاستعاري بهيمنته على ما سواه من أوجه الإمتاع الدلالي، محتاج في أوج امتيازه الجمالي الفنّي إلى انتظام تَوْزِينِيّ يستمدّ معاييره التقديرية من نباهة الحسّ، وتفطّن الغريزة وحسابها، وذلك ما يقرّبه من إصابة انتظام الدلالة الشعريّة أو يشاكله بها على أقل تقدير، والتماسا لهذا الجانب البلاغي فقد سعى البلاغيون العرب إلى الإبانة عن هوية التمازج هذه بين فاعليتيّ كلّ من الاستعارة في حدود معياريتها البلاغية وبين الشعرية ضمن هويتها الإمتاعية، حتى أحاطوا بذلك الوازع الانفعالي علما فقالوا عن الاستعارة: (...وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني، في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من كلّ جهاتها...)[88].

ولم يستطع التفكير الاستعاري، بوصفه تفكيرا قياسيا أي منطقيا مختزلا[89] – حسب تقديرنا – أن يحدّ من الطموحات البلاغية التالية لها، فالاستعارة تكون بوزنها الدلالي قد سدّت حيزا تفاعليا محدودا، لا يستطيع التجاوب مع المقاصد التعبيرية الواسعة؛ أي الأكثر تركيبا من النص الاستعاري، لذلك فقد واصل الإنشاء التعبيري بعدها فتوحاته البلاغية الاستجدادية، لذلك فقد دأبت الحداثة الأدبية العربية اليوم تلحقها بالأسطورة تارة، وبالصورة تارة أخرى، غير أن نشاطها التوقيعي ظلّ مستمرا لا يكاد يغادر خصائص الابتداع أبدا.

ولدى تمحيص مختلف الأوجه التي تتلبسها شهوة الإغراب في القول[90] المنتجة للذّة الخطاب، وهو النسق الدلالي الذي تفضله المعاني الاستعارية، فإن أصل الانفعال في مضماره يقتضي إعطاء الأهمية البالغة لتحقيق الإغراب

[86] عبدالقادر فهيم شيباني، السيميائيات العامة، أسسها ومفاهيمها، ط: 1، الجزائر، الدار العربية للعلوم، ناشرون، 2010، ص: 124/123.
[87] عنترة بن شداد العبسي، ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد المولوي، القاهرة، الكتب الإسلامي، ص: 135.
[88] عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 20.
[89] ينظر، ألفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، من الكندي حتى ابن رشد، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع 2007، ص: 219.
[90] ينظر، عبدالقاهر الجارجاني دلائل الإعجاز، ص: 297.

الدلالي، بوصفه أنجع وسيلة بلاغية قمينة بحيازة مواصفات الشعرية، لذلك لم يشذّ هذا الفهم عن العرف العربي الأصيل في تقييمهم للشعرية ملحقين إياها في المبالغة في التفضيل، وادعاء نقل الحقيقة بين مختلف القيم المتشابهة[91]، وعلى أساس من هذا الاعتبار، وبناء على السياق الدلالي الذي قرئ فيه انطباع عبدالرحمن بن حسان بن ثابت التّوصيفيّ لمّا أغرب في توصيف الزنبور الذي لسعه، مجريا بلاغة الانزياح مجرى الإمتاع الشعري غير المتّزن عروضيا برهانا على مدى استعداد الذهن لتعاطي الشعرية[92]، وهل بقيت للنقاد اليوم جرأة تضاهي تلك التي تطوّع حسان بن ثابت في توصيف الموقف التعبيري المغرب الصادر عن ابنه عبد الرحمن في توصيفه هيئة الزّنبور حين قال: قال ابني الشعر وربّ الكعبة، لينقلنا في الاتجاه المعاكس كليا لدلالة الحقيقة، فنتفهّم بعد هذه الحادثة أن ثمة فرقا شاسعا بين اللغة المقولة استجابة لمقصدية ما، وبين جمالية اللغة الأخرى المنبثقة عن حرية الانطباع المتلبّس ضروب الإمتاعين، اللساني والسماعي.

إنّ لامرئ القيس فضل التّهدّي إلى مكامن المعاني المستطرفة بناء على أوليتها في تاريخ البلاغة العربية الطويل، والمستحوذ على مزايا الامتياز اللغوي المحقق للشعرية، الراقي من شدّة موافقته للأحوال إلى إصابة الغايات التوقيعية المستحلاة، فالاكتشاف الحسي الذي شخصه هذا الشاعر الأسطوري تجلى في تفجّر قواه الحسية، ونشاطه التخييلي إلى افتطار مقاصد أسلوبية تعبيرية مكتنفة لتوقيعات تمعينية، ساهمت قوة التوافي بين عناصرها المتدالة في تحقيق قوة أثر المزاولة اللغوية في النفس، مضمنة في تلك التّلبّسات المختلفة الطقوس التي تكتنف الذات المنشئة خلال معاناتها تنزّل الخطاب، وبين التمثيل اللغويّ الذي تجسّده أجراس الأصوات اللغوية البانية للتلفيظ اللغوي، المذوقة حسيا وانفعاليا في اللسان والسمع معا، حيث تتشاكل كلّ جهات التّدالّ متناجزة، وتتراسل متوافية من أجل بلورة القيمة الشعرية للموقف البلاغيّ الاستعاريّ المُسْعَفِ باللّفظِ المُونِقِ، والإشارات الإيحائية الساحرة، وقد كان حسنا بالشعراء الذين تلوا امرئ القيس ألاّ يتبعوه في ورود بديع الاستعارة، ويمضوا في استبداع ما يكون مرادفا لها مستتبعا.

تستمدّ الدلالة الاستعارية هويتها الجمالية انطلاقا من الفضاء الفلسفي الذي رسمه الجاحظ حين قال: (...وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الأمور إلاّ عالم حكيم، ومعتدل الأخلاط عليم، وإلاّ القويّ المنّة، الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم، والسواد الكبر)[93] إنشاء القول، وتبني مبدأ التوقيع[94].

وتتحدّد مستويات القراءة الدلالية بين إنشاء وقراءة ضمن سياقيها، سياق المقاربة وسياق الاستغراق، قال البلاغيون العرب بهذه التداولية وهم مدركون لمتطلبات المرونة المقتضاة لدى كلّ إجراء تأويلي، وقد ألحق ابن جني[95] هذه الغاية حين قال: (...وليس الكلام شعرا فتحتمل له جرأة الخطاب...)، وهذا يعني أن التأطير الشعري لسياق القول قد يكون وحده كفيلا بأن يفرض عليها سياقا قرائيا، فالفورة والحماسة وشدّة الانفعال بالصور الذهنية تصير بمثابة المحفز النفسي إلى ارتجال الأساليب والعبارات، حيث لا يستطيع الشّاعرُ فعلاً، في خضمّ تأوّجه الحسّيّ، تفادي إصابة الامتياز اللغوي الذي يُعتبر التبعيد الاستعاري سقفه الأعلى، والذي يَمْرُنَ قوامه ويَسْلَسَ استجابة لوازع الإمتاع اللغوي الذي تتقصده الذات الشاعر لدى انخراطها في مجاذبة مقامات الإبداع، يضمن خلالها الجهد المبذول للتطوّع في الانفعال بالقيم البلاغية الفنية للذّات الشاعرة فسحة في التأويل، لذلك فإن التلاؤم الدلالي بين الاستعداد النفسي والأدوات اللغوية كلها يستمد مصداقيته من عقد التفاهم الذي

[91] ينظر، عبدالقاهر الجرجاني ن أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 60.
[92] ينظر، نفسه، ص: 167.

[93] الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص: 66.
[94] ينظر، نفسه، ج: 1، ص: 67.
[95] الخصائص، ج: 2، ص: 188.

يصير شائعا متداولا بين الناس، لذلك فإن الهوية الفنية تعمل عملها فينا، وتفرض علينا ضربا من الاستعداد لخصوصية التلقي، وقد توطّد هذا الاختصاص الدلالي متدرجا – حسب تقديرنا – من الصوت إلى المقطع، فاللفظة فالعبارة وهي البنيات الدلالية الصغرى، فإذا تجاوزتها القراءة إلى البنيات الكبرى، أصابت فروقا دلالية أوسع من تلك التي كانت تتعلّق بالجزئيات، حتى كأن بين قراءة النثريّ، وقراءة الشعريّ مثلا شروطا معرفية قمينة بأن تكون وحدها كافية لأن نعتمد أبعادا تفهمية تتلاءم دلاليا مع الخصوصية الإبداعية التي يختصّ بها كل حقل من الحقلين، الشعر والنثر، فَيَتْمَازَ كل منهما بمكوناته العضوية المشخّصة له.

وبإزاء تَطَلُّبِ الوظيفة البلاغية دلالة الاستعارية للمستويات القرائية التبعيدية غير المتناهية، فقد تحسّس البلاغيون العرب هذا المناط، واعين المناسبات الحالية المطلعة لها، فأثروه بالتوجيهات المنهجية المتسقة، المُغَلِّفَة للمبدأ الحاضن لها، وقد باتوا يعتقدون في ذلك مسارب روحية قاربوها بقولهم: (..لأنّ الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان، وملح المجانين...)[96].

وبما أن الدلالة الاستعارية تنشد الفضاءات الإيحائية اللاّمتناهية الأبعاد، فإن تبطّن الرأي النقدي السابق بمحاولته تعليم المنازل الحاضنة لمختلف الأبعاد الدلالية القصوى، حيث انتظمها في تراكم التبعيدات المجازية عبر فضاءات: الإغراب، والإيهام، والإطراف، والتعجيب، والإبداع، حيث تبدو جميعها سلما فكريا وفلسفيا تتجلى منه أبعاد ترقية الدلالة، وبما أن الدلالة الاستعارية مطلقة القول وحرة التأويل فإنها كفيلة بأن تستوعب الإشارات النقدية السابقة وزيادة، حيث كان التفكير المعجمي العربي قد استبق إلى توصيف النشاط الاستدلالي لأن أصل الدلالة متضمن (...إبانة الشيء بأمارة تتعلمها، الدليل الأمارة في الشيء...)[97]، وهذا الذي توسله السيميائيون في معالجة السيميائية الدلالية، التي تعتبر فيها الإحالات العرفية والنفسية المجال الأخصب، لأن المعاني تتجاوز تلبس النحوية إلى ما هو أسمى من مثل التوقيع المعنوي، الذي هو كيفيات أسلوبية لا تستقرّ على طريقة، وإنما هي تتلوّن حسب تكثيف قوى النشاط الإبداعي المتفلتة من كلّ إحصاء.

وهكذا يتراءى لنا أن التفكير البلاغي العربي لم يتحفظ في تقدير دلالة الاستعانة من حيث كونه ينظر إلى نشاطها بوصفه مقرونا بالنشاط الحسي، رابطا إياها بمطارب يصعب حصرها أو تمييزها نظريا، ونرى ذلك الاتساع والثراء هو الذي أملى التفهم المستفيض حتى دخل في اعتبارها تعجيب بلاغات كلام المجانين والصبيان بالرغم من التحفظات الاجتماعية المحيطة بكل ما يصدر عن هذين المخلوقين، إلاّ أن الغاية الإمتاعية ظلّت في كلّ الأحوال المحرض الأقوى في اعتماد مرجعية بلاغية الإمتاع.

لقد ظلت التناهضات الدلالية التفاضلية على جنبات الخطاب الأدبي الفني تمدّ المفهوم الاستعاري بالإحالات الفلسفية والجمالية التي دأبنا على استمدادها من تلك الهوامش التوضيحية والتي ستغفل آثارها عن قصد أو غير قصد لاحقا، تحقيقا لغرض بنائي يمليه ترتيب جهات المعنى في النفس، فقد ظلّ هذا التوجّه السيميائي يستوحي أفكاره ودلالاته حرصا منه على تحقيق التوافي بين صورتي الخطاب النفسية من جهة وصورته اللفظية من جهة أخرى[98]، ولنا أن نتأمل كيفية حصول التّوَافِي القاضي بمبدأ تلاؤم الجهتين؛ لأنّ توسم هذا المنظور يقودنا إلى الأخذ بعين الاعتبار بشاهد الحال، ولحظة الوعي، وملابسات التلقي، فهي جميعها تسهم

[96] الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1،ص: 65.

[97] ابن فارس معجم مقاييس العربية، دار الفكر 1979، مادّة: دلّ.

[98] ينظر، ابن جني، الخصائص، ج:1، ص: 19.

بصورة مباشرة في تحديد مدى ثراء الاستقراء من عدمه.

تحيلنا مجموعة من المقولات النقدية على التيّقّن من مدى تقبل الكون اللغوي على تقبل الهيئات التي ينتظم في سياقها التمعين الاستعاري، فإن لذلك الوثوق ضمانا لآصرة التواصل بين الطرفين المتراسلين، وهي ما تعني في مجملها انفتاح الدلالة اللغوية الإمتاعية أي الملذوذة على تقبل كل استجداد أسلوبي أو بلاغي، فالتشبيه الذي هو أساس الإجراء الاستعاري مفتوح على فضاء التجريب التمعيني الواسع، فهو وفاق هذا المفهوم الجوهريّ، وهو باب كأنه لا آخر له، يستوعب كل مسرح فكر، وتخالج نفس[99]، يتّفق هذا الإطلاق الدلالي للوظيفة البلاغية التشبيهية مع إطلاقهم لموضوع مخارج أصوات حروف اللغة فهي بناء على التفهّم البلاغي غير محدودة لا تحصى ولا يوقف على تعدادها، فهي تنزاح وتتحول تحول المعاني والدلالات المجازية[100].

ومثلما علمت لغة القرآن الكريم عقول الدارسين شؤونا بلاغية جمّة، فقد ورد في الأساليب البلاغية القرآنية ما أسدى إلى التفكير البلاغي المزية المثلى، من منظور أنه أثبت نماذج تصويرية وتخييلية حرّرت قوى النشاط الحسي في الشعراء، فكانت لهم بمثابة المعتق لهم من ربقة الخضوع للتقليد، المستحوذة على إمكان التجاوز الإعجازي للإجراء البلاغي العادي لدى فحول شعراء العرب، نستوضح هذا المناط من تدبر التفوّق البلاغي الكامن في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾[101]، وقد كان في عرف الأعراب أن يلتزموا بتحقيق إلحاق ناقص بتامّ لدى توزين المعاني الاستعارية، لا يجرؤون على مخالفة هذا المبدأ، ولا يقوون على تجاوز حدوده.

المكونات الدلالية للاستعارة:

تؤدي لعبة الأحيزة في التفكير البلاغي الاستعاري وظيفة بنائية محسوبة المراتب، مقدرة التَّدالّ، فالكيفيات التي يتمّ إثباتها والبرهنة على الحبكة المنتهجة لادّعاء دخول المشبه في جنس المشبه به، تتلخص في مفهوم ثقافي يجمع بين الفطنة الذاتية القارئة والمُتَفَرِّسَة الفائِقة، وبين اتقاد الذكاء والثراء المعرفي القائد في مجمل تناهضاته النفسية إلى قراءة الأبعاد الدلالية، وحساب العلاقات، والاقترانات بين مختلف المواد البانية لإيقاع المشابهة بين أكوان الأشياء وأشكالها وألوانها وقيمها الموغلة في الخفاء، على أن يحترس الحسّ من انكشاف اللعبة اللغوية ببثّ الموهمات الفنية من جهة، بغية الإبقاء عليها خفية السريان، وتعزيز نية الإطراف والإمتاع، ثمّ يهيّئ لتلك المتلازمات البنائية، بتقدير موضع علامة القرينة من فصول سياق الخطاب، القرينة التي من وظائفها تبرير الإجراء التحويلي للمعنى، والانزياح بها بعيدا عن حسابات العقل، لذلك فقد ظلت القرينة، بكونها مفتاح القراءة الفاكّ للعبة الإلغاز الدلالي، محورية علاميتها تتأطر نقديا بمصطلح: النِّصب أي نصب القرينة الذي يعني: التبييت والتعويل، والقصدية، وتقدير الكمون الدلالي في موضع من الخطاب بعينه دون المواضع العشوائية الأخرى، يحصل ذلك الأثر، وتتحقّق تلك البنية الدلالية بهدف (...منع الكلمة من حملها على ما هي موضوعة له إلى إيجاب حملها على ما هي موضوعة له...)[102].

تستمدّ الدلالة الاستعارية أدواتها السيميائية انطلاقا من الترتيبات البنائية المحيلة إلى مجمل العناصر اللغوية وغير اللغوية البانية للمعنى، مثلما عناه "شتراوس" حين لاحظ الانتقال من الفعل الاجتماعي إلى الظاهرة الثقافية في شكل عناصر دلالية، ولم يحصل للإنسان هذا التحوّل القائم على قناعية حياتية إلاّ بعد أن تتازل عن أنانيته للآخر، حيث يتحول الاجتماعي إلى ثقافي[103]، فالممارسة الاجتماعية التي هي المحكّ الأنجع لصياغة الظاهرة البلاغية، مثلما تتجسد

[99] ينظر، المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج:2، ص:118.
[100] ينظر، الجاحظ البيان والتبيين، ج:1،ص: 28.
[101] الصافات: 64 /65.

[102] السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 157.
[103] C. L. strauss – Les structures elementaires de la parenté Ed- mouton. Paris 1967 ; P73.

في النشاط الدلالي الاستعاري تلتقط مكوناتها الانتظامية بشيء من التناهي في التعليم والتحديد والتوصيف، يتمّ من خلالها صياغة النموذج الذي هو ليس في حاجة إلى إعادة عرض جدواه على النشاط الواقعي للمجتمع[104]، ولعل هذا المناط هو الذي توخّى إمساسه سعيد بنكراد[105] تحت ملاحظة: الهيكل السردي، فالتراتبية التي يسلكها الفعل الدلالي تستوثق بكل (...ما يقوم بملء البياضات والفراغات داخل المتّصل الحياتي)، مراحل النمو الوظيفي للمعنى بلوغا به إلى أسباب التكريس، ونصادف ما هو أكثر تجذّرا للملاحظات التي يمكن اعتمادها في توصيف المكون الثقافي حين حشد أبو حيان التوحيدي المناطات التي تعتمدها فطنة الجاحظ[106] في تشخيص مكوناته الثقافية والفنية حين قال: (...إن مذهب الجاحظ مدبّر بأشياء لا تلتقي عند كلّ إنسان ولا تجتمع في صدر كلّ أحد، بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ...)، ولا مناص لكل خبرة من أن تسلك هذه المراتب، وترتقي هذه المعارج، حتى تتشجع في الاستئناس بما انقشعت آفاقها البلاغية التبعيدية في النموذج القرآني المماثل بين خارقين والمقارب بين مستغربين، فتتعلم منه شجاعة التوقيع، وتستوثق منه بحرية التصوير.

ونعتقد، انطلاقا من تأني تسّهل الموافقات الدلالية البلاغية على اللسان المنشئ للكلام الفني الجميل، والذي يمثل التصوير الفني الاستعاري أعلاه المغدق، أن ذلك راجع إلى تواقع الطبقتين من الكلام ضمن الأيقونة الواحدة: الكلام الجيد، لذلك ألحقوا توصيفات نقدية تسعى للإحاطة بمقدرات الفطنة البلاغية من مثل: فلان جيد الفراسة، أو فائق بخصائص التمهّر البلاغي[107]، أو صانع للمناقلات الحسان، والكلام الرديء (...فإن الأشياء تزداد بيانا بالأضداد...)[108]، لأن في تناجز المستويين المتفاوتين من درجة الإبداع تحقيقا لغاية نقدية مفيدة، تتمثل في كون الذات المبدعة لا تستطيع التحليق مطلقا في آفاق عوالم الإبداع البلاغي بلا فتور ولا كلل، والأعراب تتحسّس مواطن التجويد البلاغي، وتحتفل بذلك مزهوة، يداخلها الفرح والحبور تبعا لما أوتيت من فطرة الاحتفال بالقيم البلاغية، والاغتباط بمظاهر الابتداع كيفما تنوعت مضاميرها الدلالية، وتمييز خصائص أساليبها التعبيرية، لذلك فهم يمدحون بالخفة والرشاقة والرمز الحلو، وتحقيق عذوبة الألفاظ قضاءً للحوائج، (... فكأن العرب إنما تحلي ألفاظها وتدبجها، وتشيها، وتزخرفها، عناية بالمعاني التي وراءها، وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها...)[109]، وقد كانت هذه الغايات الاستشرافية الحريصة على تهذيب الدلالة اللغوية سياقا فلسفيا وفنيا وفكريا، ظلّ يفتش عن كيفيات إثراء الحراك الدلالي الذي تتعلق أسبابه بالدالّ عن طريق توفير السببية، كما هي لدي سوسير (...فالتأتي والتلطّف في جميع هذه الأشياء وضمّها، وملاءمة ذات بينها هو خاصّ اللغة، وسرّها وطلاوتها الرائقة وجوهرها...)[110].

وكفيل بالتوقيعات البلاغية الاستعارية أن تترسم سياقا دلاليا يحرص منشؤه على المجيء به محفوفا بالفرادة، والتميّز، وقد تكون هذه الخصوصية اللغوية والبنائية كافية لأن تحفظ للدلالة اللغوية الاستعارية أجواءها التمعينية، وقد تتطور تلك المعرفة بقواعد بناء الدلالة الاستعارية إلى ما يشبه الاستعداد النفسي، يتحقق للمنشئ كلما توافرت أسباب تشبع الذات المبدعة بقيمه، فما على الخائض سبيل الدلالة الاستعارية (...إلاّ أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتاتيه المعاني أرسالا، وتنثال الألفاظ انثيالا، ثمّ لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه لأحد من ولده...)[111].

---

[104] ينظر، نفسه، ص: 306.
[105] النصّ السردي، نحو سيميائيات للإيديولوجيا، ط:1 دار الأمان الرباط 1996، ص: 87.
[106] الإمتاع والمؤانسة، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، ص: 66.
[107] ينظر، الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 71.
[108] عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 24.
[109] ابن جني، الخصائص، ج: 1، ص: 220.
[110] نفسه، ج: 2،ص: 125.
[111] الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 2، ص: 50.

ومثلما يختص الانفعال بالقيم البلاغية الاستعارية بأساليب تعبيرية بعينها، فإن اللغة وفق ذلك الانتظام الخاص، تغدو ملتزمة بتلك الطبيعة الدلالية، ويصبح كل كلام في ذات النسق ملذوذا (..لإفادته إياك على مجيئه مجيء ما لا يعوّل في الإفادة عليه، ولا طائل للسامع لديه...)[112] إلى أن يكفل أسلوب الإبلاغ المباغت والفاجئ هذا أسباب الالتذاذ الدلالي الاستعاري، ويهيئ له من النظر النقدي المنهجيّ ما يبرّر كل وظيفة بلاغية تنتهي قراءتها له إلى القبض على خصوصية نشاطه الدلاليّ.

ويكون جديرا بالنظام الدلالي الذي ترسمه آليات تركيب أسلوب الاستعارة البديع أن يوطّد طبيعة تفهمية خاصة تلتقط أدواتها وآلياتها انطلاقا من الإلمام بثقافة التوقيع، تكون قراءتها نابعة من قوة التشبع البلاغي الخاص بتوزين لغة الاستعارة، لذلك فإنك (...تجد أيمن طائرا، وأحسن أوّلا وآخرا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكنس إلاّ ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلاّ يزينها...)[113].

يتبين للمتفكّر أن طبيعة الدلالة الاستعارية مستحوذة في صميم تجلياتها على التزام أدبي، نستطيع أن نتبين ذلك من خلال أصناف الدلالات اللغوية المؤثثة لبنية الخطاب الكلية، وبما أن الاستعارة بنية دلالية تستقي أدواتها الفنية من ثقافة لغوية متكاملة فإنها تغدو في صورتها الابتداعية بمثابة الوزن، أو الشكل أو الأسلوب، يستفيد منه القارئ استفادة المنشئ من استقراء مقوماته في سبيل إصابة مقدراته الانفعالية.

المراجع:

المراجع باللغة العربية:

الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، أبي عبيدة الوليد بن عبيد، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار المسيرة، ص: 243.

ابن خلدون، المقدمة، ج:2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ص:1082.

السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، بيروت لبنان، دار المعارف العلمية، ص:86.

الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي 1968، ص: 81.

هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ترجمة: محمد العمري، الدار البيضاء أفريقيا الشرق 1999، ص: 85/ 87/86.

ابن جني، الخصائص، ج: 1، تحقيق: محمد علي النجار، ط:3 بيروت عالم الكتب، 1983، ص: 215.

ينظر، نفسه، ج: 1، ص: 285.

ابن جني، الخصائص، ج: 2، ص: 125.

الآمدي، الموازنة،ص: 24 .

ينظر، طبقات الشعراء بيروت دار النهظة العربية للطباعة والنشر، ص: 6.

جان ماري جويو، مسائل فلسفة الفنّ المعاصرة، ترجمة: سامي الدروبي، ط:2 بيروت دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1965، ص:65.

قاسم سيزا، نصر حامد أبو زيد، مدخل على السيميوطيقا، ط:2 الدار البيضاء، منشورات عيون، ص: 10.

الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 14.

الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط:5، بيروت دار المعارف، ص: 115.

السكاكي، مفتاح العلوم، ص:74.

عبدالقاهر الجرجاني ن أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة بيروت لبنان، ص: 192

الجاحظ، الحيوان، تحقيق: يحيى الشامي، ج:1، ط:3، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1990، ص: 486.

ابن جني، الخصائص، ج: 1، ص: 369.

الخصائص، ج: 2، ص: 360/ 441.

ينظر، نفسه، ج: 2، ص: 188.

عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 10.

الآمدي، الموازنة، ص: 159.

الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ط:1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع 2005، ص: 17.

ابن جني، الخصائص، ج: 1، ص: 162/161.

جان ماري جويو، مسائل فلسفة الفنّ المعاصرة، ص: 197

الخصائص، ج: 1، ص: 32.

الآمدي، الموازنة، ص: 226/123.

السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 112.

إبن سينا، الخطابة من كتاب الشفاء، تحقيق: محمد سليم سالم، القاهرة، وزارة المعارف العمومية، 1954، ص: 202.

[112] عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 14.
[113] نفسه، ص: 10.

قاسم سيزا، نصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا، ص: 95.
الآمدي، الموازنة، ص: 21.
إبن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ص:3.
إبن جني، الخصائص، ج:2، ص: 447.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 66.
ابن جني، الخصائص، ج:1، ص: 32.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص: 66.
جون هيدسون، الأنتروبولوجيا، ترجمة: محمود عياد، القاهرة عالم الكتب، 1989، ص: 188.
ابن جني، الخصائص، ج:1، ص: 216/215.
السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 87.
امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس، شرح حسن السندوبي، ط:5، بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ص: 116.
المبرّد، أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة المعارف، ص: 18.
ابن خلدون المقدمة، ج: 2، ص: 1099.
أبو العلاء المعريّ، رسالة الغفران، تحقيق: علي شلق بيروت، ط:1، دار القلم، 1975، ص:92.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص: 40.
ابن جني، الخصائص، ج:2، ص: 32.
عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 203
منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت، ط: 2، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص: 227/226.
الجاحظ البيان والتبيين، ج: 1، ص: 11.
نفسه، ج:1،ص: 50
عبدالقاهر الجرجاني، أرسار البلاغة في علم البيان، ص: 10
الآمدي ، الموازنة، ص: 223.
السكاكي، مفتاح العلوم، ص:138.
ابن طباطبا عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، الأسكندرية، منشأة المعارف، ص: 41.
السكاكي، مفتاح العلوم ، ص: 138.
نفسه، ص:183.
ينظر، نفسه، ص: 183.
روبرت شولتز، السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، ص: 48.
ابن المعتزّ، كتاب البديع، ص: 14/ 16.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1، ص: 59.
نفسه، ج: 59.
السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 158
الآمدي، الموازنة، ص: 159.
الباقلاني، أبو بكر، إعجاز القرآن، ص: 63.
نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة ن آليات التأويل، الدار البيضاء المغرب، المركز الثقافي المغربي، ط:4، 1996، ص: 21/20.
نفسه، ص: 223
ابن جني، الخصائص، ج: 1، ص: 27.
الشوكاني، إرشاد الفحول، ص: 38.
نفسه، ص: 4.
نفسه،ص: 156.
البيان والتبيين، ج: 1، ص: 81.
عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 167.
الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول، ص: 98.
عبدالقادر فهيم شيباني، السيميائيات العامة، أسسها ومفاهيمها، ط: 1، الجزائر، الدار العربية للعلوم، ناشرون، 2010، ص: 124/123.
عنترة بن شداد العبسي، ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد المولوي، القاهرة، الكتب الإسلامي، ص: 135.
عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 20.
ألفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، من الكندي حتى ابن رشد، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع 2007، ص: 219.
عبدالقاهر الجارجاني، دلائل الإعجاز، ص: 297.
عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 60.
نفسه، ص: 167.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص: 66.
نفسه، ج: 1، ص: 67.
الخصائص، ج: 2، ص: 188.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 1،ص: 65
ابن فارس معجم مقاييس العربية، دار الفكر 1979، مادّة: دلّ.
ابن جني، الخصائص، ج:1، ص: 19.
المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج:2، ص:118.
الجاحظ البيان والتبيين، ج:1، ص: 28.
الصافات :65/64,
السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 157.
نفسه، ص: 306.
النصّ السردي، نحو سيميائيات للإيديولوجيا، ط:1 دار الأمان الرباط 1996، ص: 87.
الإمتاع والمؤانسة، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، ص: 66.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 71.
عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 24.
ابن جني، الخصائص، ج: 1، ص: 220.
نفسه، ج: 2، ص: 125.
الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 2، ص: 50
عبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 14.
نفسه، ص: 10.

المراجع باللغة الأجنبية:

ge, Bruxelle, Ed; Labov. 1988, PP: 255_256. U. Huco, Le signe, Histoire et

A. Van Dijk, Aspects D'une théoris Generative Du texte Poétique, Essais de sémiotiqe Poétique .Ed-Larousse, P:188.

U. Eco. Les limites de l'interpretation, trad. M. Bouzaher, Paris, Ed, Gassetet fasquelle, 1992, P:150.

c. L .strauss – Les structures elementaires de la parenté Ed- mouton. Paris 1967; P73.

analyse d'un concept; trad, J _M. Klinkenber

G. Moulin, introduction a la simiologie, Ed; minuit, Paris, 1970, pp94_104.

Pierce Ecrits sur le signe, Op, cit, 2-274, P_ 147.

K, Paris, 1987, PP: 14, foz, ed. M C. S. Pierce, Textes Fondamentaux De sémiotique traduction et notes B. Fouchier-Axelsen et C. Greimas. Courtes; O. p; P197.

